

المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

جلال آل أحمد

نون واقلم



الطبعة الثانية

2/87

ترجمة: ماجدة العناني
مراجعة: إبراهيم الدسوقي رستا

نون والقلم

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

– العدد: ٨٧ / ٢

– نون والقلم

– جلال آل أحمد

– ماجدة العناني

– إبراهيم الدسوقي شتا

– الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

نون والقلم

نويسنده: جلال آل أحمد

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ .

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

نون والقلم

تأليف: جلال آل أحمد
ترجمة: ماجدة العناني
مراجعة: إبراهيم الدسوقي شتا



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٠٢٣ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 4 - 338 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

إهداء

إلى إبراهيم الدسوقي شتاً

الأستاذ والزوج والحبیب والصديق

ماجدة

مقدمة

كان أول ما التقيت بهذه الرواية العجيبة الغريبة " نون والقلم " في ذلك العرض الشيق الذى قدمه إبراهيم الدسوقي شتاً في كتابه "مطالعات فى الرواية الفارسية المعاصرة"^(١) ، وشددت إلى الرواية بشكل عجيب ، وسرعان ما اقتنيتها وقرأتها كاملة وزاد إعجابى بها ، وصح عزمى على نقلها إلى اللغة العربية وبخاصة أن جلال آل أحمد برغم ريادته فى الفكر والأدب ، وبرغم الدور العظيم الذى أداه فى المحيطين الفكرى والأدبى ، إلا أنه لم ينقل إلى اللغة العربية ، ولولا العرض الذى ورد فى كتاب مطالعات فى الرواية الذى سلف ذكره ، ثم الفصل الذى كتبه عنه حسن كامشاد فى كتابه " النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر " والذى ترجمه إبراهيم الدسوقي شتاً أيضاً عن الإنجليزية^(٢) ، لما عرف قراء العربية شيئاً عن الكاتب ، برغم أنه معروف على المستوى العالمى بعد ترجمة كتابه الخطير " الابتلاء بالغرب "^(٣) إلى اللغة الإنجليزية ، وترجمة روايته " ناظر المدرسة "^(٤) إلى الإنجليزية أيضاً ، كما ترجم له العديد من القصص القصير .

(١) إبراهيم الدسوقي شتاً : مطالعات فى الرواية الفارسية المعاصرة - الهيئة المصرية

العامّة للكتاب - القاهرة ١٩٨٦ - صص : ١٦٨ - ١٩٢ .

(٢) حسن كامشاد : النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر : ترجمة إبراهيم الدسوقي

شتاً - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٢ - صص ١٩١ - ١٩٤ .

(٣) " غرب زدگى " وله ترجمة إلى العربية لإبراهيم الدسوقي شتاً المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩ .

(٤) مدير مدرسته والرواية ترجمة عربية قام بها الزميل الدكتور عادل عبد المنعم وراجعها

الدكتور محمد السعيد عبد المؤمن ولم تنشر بعد .

ولد جلال آل أحمد في طهران سنة ١٩٢٣ لأسرة محافظة ينتمى معظم رجالها إلى الهيئة الدينية ، ومع ذلك كان آل أحمد من أوائل المثقفين الذين انضموا إلى حزب توده " الحزب الشيوعي الإيراني " عند إعادة تأسيسه بعد دخول الحلفاء إيران ، وإلى تأثره بمبادئ الحزب ترجع الخلفية الفكرية لمعظم إنتاجه الأدبي الأول والذي يتمثل في مجموعات القصصية " ديد وباز ديد = تبادل الزيارات " (١٩٤٥) و " از رنج كه ميبريم = من الألم الذي نعاني " (١٩٤٧) و " ستار = السنتور " (١٩٤٨) و " زن زيادي = امرأة فوق العدد " (١٩٥٢) وتدور موضوعات قصص هذه المجموعات حول نقد الخرافات التي تروج باسم الدين مع شعور بالتعاطف مع الشعب الذي يعاني من القهر السياسى والظلم الاجتماعى .

وبعد سقوط مصدق وافتضاح توده انشق عنه جلال آل أحمد ، كما صمت فترة عن الإنتاج الأدبي ملأها بالاهتمام بجمع المأثور الشعبى والخوض فى استخراج الدفين من خصائص البنية الثقافية لشعبه والتي لم يفقد يوما الإهتمام بها ، وكان من نتاج هذه الفترة دراساته الثلاثة التى لقيت شهرة عالمية عند المهتمين بالمأثور الشعبى والأنثربولوجيا " اورازان = اسم منطقة فى الطالقان الأعلى " (١٩٥٣) و " تات نشينهاى بلوك زهرا = قبائل التات فى منطقة الزهراء " (١٩٥٩) و " درهء يتيمهء خليج جزيرهء خارك = جزيرة خارك درة الخليج اليتيمة " (١٩٦٠) . وكان من نتاج هذه الفترة أن اكتشف جلال آل أحمد أن البنية الحقيقية للشعب الإيراني بنية دينية ، فعاد إلى الدين لكن كمعتزلى حر تائر على كثير من الممارسات التى تجرى

فى إيران باسم الدين وباسم المذهب الشيعى ، وتعبير مرحلة إبداع الستينيات عن أفكار شديدة الجدة على المستويين الإبداعى والفكرى : كان من نتائجها على المستوى الفكرى كتبه " الابتلاء بالتغرب " و رحلته إلى الحج التى نشرها تحت عنوان " خسى درمىقات = قذى فى الميقات " و " خدمت و خيانت روشنفكران = المفكرون بين الخدمة والخيانة " ويضيق بنا المجال عن الحديث عن تأثيره فى الجيل الأحدث من مفكرى إيران الذين مارسوا الكتابة وعلى الخصوص على شريعتى وصمد بهرنجى أما على المستوى الإبداعى فكان من أهم نتائجها : رواية نون والقلم وخطها العام كما سنرى رفض التجديد باسم الدين وما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج وخيمة ، ورواية " نفرين زمين = لعنة الأرض " عن صدى الإصلاح الزراعى الشاهنشاهى فى ثورة الشاه البيضاء (١٩٦١) فى ريف إيران ^(١) .

وفضلا عن ذلك كان جلال آل أحمد مترجما مبدعا عن اللغات الأوربية ترجم المقامر لديستيوفسكى والغريب وسوء تفاهم لألبير كامو والأيدى القذرة لجان بول سارتر ورحلة الاتحاد السوفيتى والأغذية الأرضية لأندريه جيد والخرتيت لأوجين يونسكو وكلها عن الفرنسية .

(١) لم أفصل فى الحديث عن الرواية والإنتاج الأدبى لجلال آل أحمد فقد ذكرته فى بحثى المطول " جلال آل أحمد وروايته نون والقلم " المنشور فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - ج ٥٧ ، العدد ٢ ، ١٩٩٧ ، كما لم أفصل الحديث عن تطوره الفكرى لأنه مبسوط فى مقدمة الترجمة العربية لكتاب " الابتلاء بالتغرب " لإبراهيم الدسوقي شتبا المجلس الأعلى للثقافة .

نفي جلال آل أحمد إلى قرية أسالم في الشمال الإيراني . وتوفي في
كوخ له فيها وفاة مشكوكا في أمرها في غروب السابع عشر من
شهر ربيع سنة ١٣٤٨ هـ . ش . (١٩٦٩) .

وإني لأرجو بتقديمى للترجمة العربية لهذه الرواية أن أكون قد
أضفت إلى اللغة العربية نصا جديرا بالإضافة يثريها ويغنيها ، كما لا
يفوتني أن أشكر أستاذي وزوجي الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا على
تشجيعه إياي على الترجمة ، ومراجعتة لها ، والله من وراء القصد .

دكتورة ماجدة محمد علي العنانى

المدرس بكلية الآداب - جامعة حلوان

"... وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون "

سورة القلم

.

(١)

قبل المدخل

كان يا ما كان ، وما ثم إلا الله . كان هناك أحد الرعيان يملك قطيعا من الماعز ، وكان أقرع دائما ما يضع على رأسه جلد قربة حتى لا يضايقه الذباب . وشاء القضاء أنه بينما كان صاحبنا الراعي يطوف بقطيعه في الخلاء أن رأى ازدحاما لا يوصف . كان الناس جميعا قد تقاطروا خارج المدينة ، وكانوا يرفعون الأعلام والبيارق ناحية الخندق ، ويلوحون بها مهللين هاتفين : يا قدوس يا قدوس ، وهم يرفعون رؤوسهم وعيونهم متجهة إلى السماء ، ووضع صاحبنا الراعي قطيعه في الأماكن الخفية والمخابيء الموجودة على حافة جدول ماء أسفل شجرة التوت ، وأمر كلبه بحراسته وذهب يتشمم الأخبار ، ووجه وجهه إلى السماء لكنه لم ير شيئا ، إلا أنهم كانوا قد نصبوا المرايا أعلى برج المدينة وحصنها وأعلى بواباتها كما علقوا السجاجيد . وكانت نقطة قرع الطبول الملكية تقرع الطبول داخل مركز حراسة البوابة الكبيرة وتنفخ في الأبواق حتى أصمت أذان الفلك . وأخذ صاحبنا السيد الراعي يحجل ببطء وسط الجميع ، لكنه لم يكن قد وجد الفرصة بعد ليسأل ويتقصي الأخبار من أحد ، حتى ظهر فجأة عقاب من طيور الصيد المدربة ، ومن مثل السهم النافذ وحط على رأسه ، وكان من تلك الطيور التي تحمل

جديا في الهواء ، وما إن أفاق السيد الراعي ليفهم ما حدث حتى تقاطر
الناس من حوله ورفعوه وحملوه مهلين زاعقين بالصلوات " على النبي
وآله " والدعوات . إلى أين ؟ الله أعلم . ومهما قاوم ، ومهما صرخ ، لم
يكن ذلك ليجدي فتيلًا في الناس ، وكأنه لم يحدث شيء . أخذ يحدث
نفسه : يا الله أى ذنب ارتكبته ؟ أية بلايا يريدون انزالها برأسي؟
الشكر لله أن خلصني من شر هذا الطائر الملعون .. ووامصيبته إن
كان قد جاء ليخرج عيني... " وظل يتحدث هكذا إلى نفسه ، بينما أخذ
الناس يتناقلونه من يد إلى يد حتى وصلوا به إلى خيمة الملك
وأدخلوه إياها . وخوفا على روحه ، قام السيد الراعي بأداء التحية
مرتين أو ثلاثة من تلك التحيات الفخمة الضخمة ذات الانحناء ، وما إن
بدأ بقول " جعلت فداؤك " ، حتى نفخ الملك وتأفف ، وبإشارة من يده
أفهمهم أن يحملوه إلى الحمام ، ويلبسوه ثيابا جديدة ويعيدوه إليه .

وكان صاحبنا السيد الراعي قد ظل مندهشا مضطربا بشكل
سيئ، كما كان قلبه قلقا على قطيعه . وعندما أوشك ثانية أن
يفهم ما حدث ، حتى صبوا على رأسه ثلاث جرات من الماء المغلي ،
ووقع فيه مدلك فحل . ولا شك أن هذا الموضع من المسألة حسن جدا .
ولم يكن صاحبنا السيد الراعي قد رأى حماما قط منذ سنوات ، ومما لا
شك فيه أنه كان إذا مر على جدول ماء ، فقد كان يرش جسده بالماء مرة
في الشهر أو في السنة ، لكنه لا يتذكر سوى ليلة عرسه أنه ذهب إلى
الحمام ودلك ، فكان أن استسلم ، وخلع جلد القربة عن رأسه وطواه
ووضعه جانبا ، وأخذ يستطلع بواطن الأمر خطوة بخطوة من المدلك

الذى لم يكن قد رأى رأسا كهذى من قبل وأصابه الذهول . وكان أصل الحكاية أنه في الأسبوع السابق كانوا قد صبوا الرصاص المغلي في حلق وزير ميمنة الملك ، وأرسلوا روحه إلى بارئها ، وعلى هذا النسق كانوا ينصبون خليفة له .

وعندما اطمأن بال أخينـا الراعي بدأ يبوح بمكنونات قلبه للمدك ، وإلى أن انتهى أمر الغسل والتدليك ، حتى أحضروا شال الوزارة وجبتها ليلبسوه إياهما ، وتعلم دقائق صنعة الوزارة من المدك ، وحفظ كل ما يتصل ب " جعلت فداك " و " سلم قبلة العالم " ، وكل ما كان قد سمعه من آداب العظماء ، كما أن المدك لم يقصـر ، ويقدر ما يستطيع ذلك خاصرته بالماء الساخن حتى تلين عظامه ويستطيع أن ينحنى ويستقيم كما ينبغي . وعندما انتهى أمر الحمام ، سلم أمره لله ودخل في جبة الوزارة .

لكن لأن صاحبنا الراعي كان أساسا من أهل الجبل وسفحه ، ولم يكن من أهل مثل هذه الولايات والمدن التي تحتوى على هذا النوع من العظماء ، وعلى ملك ووزراء ، ولأنه كان في الأصل رجلا بسيطا ساذجا ، فقد طرأت برأسه فكرة جديدة ، وكانت هذه الفكرة البكر أنه عندما خرج من الحمام ، لف سترة الراعي والحذاء المطاطي ذا الرقبة وجلد قربة الرأس وعصا الراعي في بقجة ووضعها في يد أحد الحراس ، وعندما وصل إلى قصر الوزارة ، ذهب أولا إلى السرداب ، وأخذ يبحث هنا وهناك حتى عثر على صندرة خالية ، فوضع البقجة داخل صندوق ووضع قفلا على غطاءه ، ودس مفتاحه في طيات شاله ، وانصرف إلى أعمال البلاط والوزارة .

أما ما كان من أمر الأضيـش وزير الميمنة السابق ، الذين أسقط في أيديهم تماما بمجيء الوزير الجديد^(١) وحرّموا نعمة النفاق والمداهنة ، لأن السيد الراعي الذي صار وزيرا قد قطع عنهم " الحليب والرائب " كما يقال ، وقال " على عادة القرية ، كل من زرع يجب أن يحصد " .. يا أعزاء القلب ، جلس هؤلاء الأضيـش وتأمروا ووضعوا الخطط للقضاء على هذا الوزير القروي الذي كان يظن شغل الوزارة مثل عمودية إحدى القرى . فكان أن قاموا أولا برشوة كبير حجاب الوزير الجديد ، وعن طريقه أخذوا يتلصصون عليه ويطلعون على سوءاته ، وواصلوا العمل حتى عرفوا أن الوزير الجديد يذهب كل أسبوع يوما داخل الدهليز ، ويختفي ساعة عن الغرباء ويقوم بعمل ما . وكان هذا الذي وقع في أيديهم من قبيل طرف الخيط ، فأطلقوا شائعة أوصلوها إلى مسامع الملك فحوّاهـا : مالك قاعد ؟ إن خليفة وزير الميمنة لم يكـد يصل من الطريق حتى جمع كنزا أكبر من كنزى قارون وسليمان ، ومما لاشك فيه أنه سرقه كله من الخزانة الملكية !! والملك الذي كان عادلا ومحسنا على الرعية بدليل أنه كان يبني كل عام إثني عشر سجنا حتى لا يجروا أحد على السرقة وهتك العرض ، قرر مع وزير الميسرة أن يذهبـا في الوقت المحدد ويضبطاه ويقوما بفضحه .

يا أعزاء القلب ... هكذا نقل لنا الرواة وكلامهم كالسكر أنه عندما جاء اليوم المحدد والساعة المحددة ، انطلق الملك مع وزير الميسرة

(١) حرفيا : وضعت أيديهم وأقدامهم في قشر جوز . المترجمة .

ومجموعة من الحراس وجميع الألاضيـش ، وذهبوا خـبـيا يـبحـثون عن الدهليز السرى لوزير الميمنة ، وبمجرد أن فتحوا الباب ودلفوا منه ، أوشكوا من الدهشة أن تطلع لهم قرون !! إذ رأوا وزير الميمنة جالسا ، وقد وضع جلد القربة على رأسه ، وقد خلع جبة الوزارة عن جسده ، وارتدى ثياب الراعي ، واتكأ على عصاه القديمة الغليظة وأخذ ينتحب . وحرار الملك جوابا بشكل لا يوصف ، أما وزير الميسرة والألاضيـش فكأن لم يكونوا .

وحدثوا أنتم ما حدث بعد . ولا جدال أن وزير الميمنة عندما استراح من المتاعب الأولى للعمل ، أرسل شخصا أميناً إلى قرية آبائه وأجداده ، لكي يدفع تعويض قطع سكان القرية الذي كان قد تفرق بددا في ذلك اليوم ، إذ كان السيد راعينا قد فهم فيما بعد أن كل واحدة من الشياه الهزيلة من قطيعه قد ذبحها أحد المسئولين أو بلطجية أحياء المدينة أمام الموكب الملكي ، وبمجرد أن أدى هذا الدين ، أرسل في طلب زوجته وأولاده إلى المدينة ، فأدخل الأولاد الكتاب ، وعاشوا في أمن وسلام ، حتى شاء القضاء ، ووصلت نوبة الوزارة إلى شخص آخر ، أي أن وزير الميمنة قد تعرض للغضب الملكي ، وعلى مائدة البلاط ، دُس اسم في طعامه ، وأمر حكيمباشي البلاط الذي كان حاضرا وشاهدا أن يوصلوه إلى منزله سريعا ، بحجة أنه أصيب بالقولنج ، وفهم السيد راعينا الذي لم تكن الوزارة قدم سعد عليه ما حدث على الفور ، وعندما وصل إلى المنزل ، طلب منهم أن يرقدوه ورأسه إلى القبلة ، واستدعى ولديه ، وأسـر إليهما ألا تخدعهما جبة الوزارة

كما خدعته ، وأن يظلا يذكران من أين انحدرنا ، ثم أوصاهما بسترتة القديمة وحذاءه ذا الساق ، ووضع رأسه على الأرض ، ومات في هدوء . ولما لم يكن في فترة الوزارة قد جمع ثروة أو ادخر مالا حتى لا يضايق أحد زوجته وأولاده ، كان أن عادت زوجته وأولاده إلى أرض آبائهم وأجدادهم ، وسرعان ما تزوجت البنات ومضين إلى حال سبيلهن ، ولم تتحمل الأم فراق زوجها أكثر من ستة أشهر ، أما الذكور الذين كانوا إثنين ، فلأن الوهن كان قد أصابهما بعد قضائهما فترة طويلة من السكنى في المدينة ، وكان الكنف قد ذاب عن أيديهما ، ولم يعودا بعد يستطيعان استخدام الفأس أو نقل المياه ، فقد باعا قطعة أرض صغيرة ورثاها عن أبيهما ، وجاءا إلى المدينة ، ولما لم يكن هناك عمل آخر يتأتى من أيديهما ، فقد شرعا في إدارة كتاب .

حسننا ، حقيقة أن قصتنا قد انتهت في الظاهر بهذه السرعة ، لكنكم تعلمون أن الغراب لم يعد أصلا إلى عشه ، وفي هذا العصر والأوان لا يقبل أحد قصة بهذا القصر من أحد . وشاء القضاء أن ناقلي الأخبار قد روي هذه القصة فحسب كمقدمة لكي يقصوا عليكم موضوعهم الأصلي ، وهكذا فحتى يعود الغراب إلى عشه ، لنمض فنرى أصل الموضوع

المجلس الأول

والآن مرة ثانية كان يا ماكان في سالف العصر والأوان .. كان هناك كاتبان من كتاب العرائض ، يعمل كل منهما قلمه من الصباح إلى المساء عند باب من أبواب المسجد الجامع للمدينة الكبيرة التي كانت تحتوى على ملك وأيضا على وزير ، وكذلك ملا ومنجم ، كما كان فيها أيضا شرطة وعسس ، وشاعر وجلاد . كان كاتبانا يقومان بعمل أهل المدينة . وكان أحدهما يدعى " ميرزا أسد الله " أما الآخر فيدعى " ميرزا عبد الزكي " . وقد نشأ معا في الكتاب ، وكانا متشابهين في التعليم والخط بشكل أو بآخر . وعلاوة على الزمالة في العمل ، كان محل عمل كل منهما قريبا من محل عمل الآخر . كما كان كل منهما في الثالثة والأربعين من عمره . لكن السيد ميرزا عبد الزكي لم ينجب ، وكان هذا قد صار بالنسبة له داءً بلا دواء . وبالرغم من أن جاهه وقدره كان أفضل من ميرزا أسد الله بكثير ، إلا أنه كان يتشاجر مع زوجته طوال أيام الأسبوع السبعة ، فقد كانت تعيره بطفلي ميرزا أسد الله السمينين البضين . وبالرغم من أنه قد قيل من قديم الزمن أن أبناء المهنة الواحدة لا يطبق أحدهما النظر إلى الآخر ، إلا أن وضع عملهما

وظروف زمانهما كانت تحتم عليهما ألا يدخلوا في منافسة . فذلك الذى لم ينجب أطفالا ، كان لديه المال و الشأن والنقود والجاه ، وكان يجالس العظماء ، ومن لم يكن عنده المال والجاه ، كان لديه طفلان جميلان لم يكن ليفرط في شعرة واحدة تسقط من رأسيهما في مقابل الدنيا وكل عظمائها . وإلى جوار هذا ، كان من يعرفون القراءة والكتابة في المدينة - برغم أنها كانت عاصمة كبيرة - قليلا جدا ، وإذا كان من المقرر أن يكتب كل واحد من أهل المدينة على الأقل شكوى واحدة سنويا ليقدمها إلى شرطة المدينة أو حاميتها ، كان العمل كثيرا ، بحيث لا يشتبك الزميلان . هذا في حين أنه كان يحدث مرة كل شهر أن يلقي بشخص من أعلى القلعة إلى خندق الذئاب الجائعة ، ومرة كل شهرين أن تحدث جراح في بدن شخص ثم يوضع فيها الشمع المشتعل ، ويطاف به في المدينة من الصباح إلى المساء ، حتى لا يجروا أحد على السرقة وهتك العرض ، لم يكن زبائن كاتبينا - على كل حال - قلة قليلة . ولنفس هذا السبب لم يكن احتفاظهما بصداقتهما قائما فحسب ، بل وفي فترات متباعدة كان كل منهما يساعد الآخر ، ولم يكن بينهما أى نوع من التخرج ، كان كل منهما مطلعا على أسرار الآخر ، وحدث كثيرا أن كلا منهما كان يبوح للآخر بمكنونات نفسه ، لكن كلا منهما كان قد اختار طريقا لنفسه في الحياة ، دون أن يتدخل الآخر فيه .. حسنا ! كيف ذلك ؟ لنتتبع هذين الكاتبين واحدا بعد الآخر ، ولنرى ماذا كانت أحوال كل منهما وأسلوب عيشه .

يا أعزاء القلب ، من ستة بطون وضعتها زوجة ميرزا أسد الله له ،

لم يبق على قيد الحياة سوى اثنين . كان أحدهما ذكرا في الثانية عشرة من عمره يسمى حميد ، كان يذهب إلى الكتاب في الصباح ، وعصرا كان يلزم أباه ، يتلقى منه أوامره ، ويحذق صنعته ، ويتتا في السابعة من عمرها لطيفة وظريفة تدعى حميدة ، وكانت تلازم أمها وتسمعها أحلى الكلام ، وكانت تقوم بكافة الأعمال التي تطلبها منها أمها بداية من تنظيف الخضار وحتى دق اللحم . كان بيتهم مكونا من حجرتين ، وحوض وحديقة صغيرة جدا كأنها كف اليد كان الأطفال قد زرعوها بزهور نوار الليل ، وكانا يرويانها بنفسيهما ، كما كان في حوضهم خمس سمكات ملونة ، كل ما كانت تفعله ليل نهار أن تجرى خلف بعضها البعض . كانت إحدى الحجرتين قد فرشت بسجادتين تركمانيتين ، كما وضعت مشكاتان أعلى رف في الجدار ، وكانت الحجرة الأخرى قد فرشت بزرابية وطاقمين من الفراش طرفي الحجرة . كما صف على الأرفف كثير من الأطباق النحاسية والصيني وأشياء أخرى من هذا القبيل مما يلزم في الحياة . كما كانت تحتوى أيضا على ثلاجة ، وفي ركن من هذه الحجرة وضعت ملابسهم ، وكان من بين هذه الملابس سترة راع ممزقة وزوج من الأحذية المطاطية ذات الساق ، وعصا معقوفة ذات عقد ، كانت زوجة ميرزا أسد الله قد ضاقت بها ذرعا ، ولا تعلم السبب في تعلق ميرزا بها إلى هذا الحد ، ولا يسمح لها بأن تقايضها بقميص نوم .

كانت زوجة أسد الله تدعى زرين تاج هانم ، وهي من السيدات اللائي يقطر كل إصبع من أصابعهن فنا من الفنون . كانت بمفردها

تستطيع أن تعد الغذاء لمعسكر ، لكن مع أسف ، لم تكن حياة ميرزا تعرف الحفلات أو الضيافات ناهيك عن استضافة معسكر، فلا أحد يتردد عليه ، ولا لديه مائدة حافلة ، ولا حصان ولا بغل ، ولا خادمة ولا تابع، حتى زرين تاج هانم أحيانا عندما تكون متعبة ، كانت تسلم يد الهون لابنتها الرقيقة لتدق اللحم ، ومع كل هذا كان قلبها يضيق بشدة من تصارييف الدهر ، فتصب ضيقها على رأس ميرزا ، مرة ذات يوم بسبب عباءة درخشنده هانم زوج ميرزا عبد الزكي ، لأن عباعتها أحدث وأكثر جدة . ومرة أخرى ذات يوم لعودته متأخرا عن البيت ، أو لتلوث يده دائما بالحبر ، ومرة لأن سقاء الحي وضع في خزان الماء ماء كدرا في أول دور ، وأشياء من هذا القبيل ، لكن المشاجرات لم تصل في أى وقت إلى حد النكد والخصام ، وقبل أن يأتي الليل ، كانا يتصالحان من جديد .

أما عن عمل ميرزا أسد الله وشغله ، فقد كان على النحو التالي : في الصباح بمجرد أن كان يتناول إفطاره ، كان يضع مقلمته في عقدة طرف شاله ، ثم يذهب متوكلا على الله إلى جوار باب المسجد الجامع ، فيخرج فرشته المكون من منضدة صغيرة ونطع من خزانة أحذية المسجد، ويفرش النطع تحت قدميه بجوار باب المسجد الكبير داخل ممر ، ويجلس إلى المنضدة على ركبتيه في انتظار زبون . كان عمله النسخ على الورق وكتابة العرائض بخط نستعليق^(١) جميل وهوامش عريضة

(١) الخط المتداول في إيران منذ القرن الثامن الهجرى وهو مزيج من الرقعة والنسخ يحتوى على كثير من جماليات الخط . المترجمة .

، وخطوط ذات حروف انسيابية في أواخرها ، وتراعي القواعد بدقة . ،
وكان يأخذ مليما عن كل ورقة يكتبها . كانت لديه تسعيرة . وكان زبائنه
من تجار السوق يكتب لهم أوامر توريد الأرز والزيت واللوبياء التي
يرسلونها إلى التجار أو الإيصالات والحوالات والعقود ، ومن النساء
اللاتي يكتبن إلى أهلهن وذويهن دون علم أزواجهن ، أو الخاديمات اللاتي
هجرن مواطنهن وحبسن في المدينة ، واشتاقت قلوبهن إلى مواطنهن ،
فكن يسألن عن أحوال البقر المجود عند آبائهن بقرة بقرة والخراف
خروفا خروفا ، ويرسلن السلام إلى أهل القرية فردا فردا ، ويوصين
بالدواء اللازم لشفاء حمار العائلة المصاب بالجرب ، أو من فواعلية
أعمال البناء الذين كانوا يرسلون أجورهم في فصل الصيف إلى ذويهم ،
أو من الأشخاص الذين لديهم شكوى ، ويرغبون في كتابة عريضة
وتقديمها إلى الحاكم أو الشرطة أو الديوان ، ومادامت الفرصة قد
حانت ، لأحدثكم إذن عن أوضاع ذلك الزمان ، ولماذا لم يكن حجر
يستقيم على حجر ، ولماذا كنت إن وضعت يدك على قلب أحد ، ارتفع
أنينه إلى عنان السماء .

يا أعزاء القلب .. كان يحدث كل أسبوع أن طفلين أو ثلاثة من
أطفال الكتاب و من أبناء الأعيان والأشراف ، الذين يستنكف آبائهم
وأمهاتهم أصابع أطفالهم من أن تصاب بالكنف من ضغط القلم ،
فيضعون واجبات أبنائهم تحت أباط كبار المربين ، ويرسلونهم إلى ميرزا
أسد الله ، فكان يكتبها على الفور ويعيدها ، وكان هذا العمل يدر على
ميرزا أسبوعيا أربعة قروش وأحيانا عشرة وأحيانا أخرى أكثر ،

دعونا من هذا ، فقد كانت مثل هذه الأعمال أحيانا تأخذ ليالي ميرزا أسد الله ، فيظل قنديله مضاءً حتى الفجر ، ويكون الأطفال نائمين ، بينما يتصاعد صراخ زرين تاج هانم ، لكن إشباع بطون أربعة أفراد في ذلك الزمان لم يكن بالشيء الهين . وعندما كان ميرزا صبيحة اليوم التالي يدس يده في طرف شاله ، ويصب في حجر زوجته النقود المختلفة ، ينتهي النكد ، وإذا كان الطفلان مشغولين في مكان آخر ، كان كلاهما يقبل وجه الآخر .. وكانت هناك طرق أخرى يكسب منها ميرزا أسد الله ، فعندما كان يرى عيون الملات وأرباب العمائم بعيدة عنه ، كان يكتب لكبراء الحي المصالحات أو الوصايا أو يحرر عقود شراء المنازل والدكاكين والأموال وبيعها ، لاجدال إذا كان الفقهاء ومن يمثلون المفتي لا يشمون خبرا عن الموضوع ، وكان هذا النوع من الأعمال يدر دخلا ضخما . وكان العقد الواحد يساوي عاما كاملا من الكتابة ، وأحيانا كان يدر السكر النبات والشال . لكن من أسف أن هذه اللقم الحلوة لم تكن تنزل من الحلق بيسر ، فقد عنت له هذه الأعمال ثلاث مرات فقط خلال الخمس عشرة سنة التي حل فيها ميرزا أسد الله محل أبيه ، كانت الأخيرة منها منذ ثلاث سنوات فحسب ، وبسببها أوشك ميرزا على الوقوع في مصيبة . وكانت سببا في أن " ميزان الشريعة " إمام الجمعة في المدينة ومفتيها ، أمر رئيس حفظة الأباريق في المسجد أن يتجسس على أعمال ميرزا ، وأن يبلغ أخبارها إلى شرطة الحي يوميا من الألف إلى الياء.

وفي المرة الأخيرة كانت الحكاية على هذا النحو : فقد جاعوا

وأخذوا ميرزا ليكتب وصية الحاج عبد الغني الذي كان قد كبر وخرف ، وكانت زوجاته من متعة ودائمت يخشين أن يموت دون أن يوصي ، ويضع رئيس العسس والحاكم أيديهما على أمواله ، فلا يطول المساكين الأيتام شيئا ، وشاء القضاء أن ينتقل الحاج إلى رحمة الله بعد كتابة الوصية بأسبوع واحد ، وكان رئيس الشرطة ورئيس العسس قد جهزا خرجيهما ، وبمجرد أن وقعت عيونهما على خط ميرزا وختمه ، تصاعد الدخان من يافوخيهما ، لكن لم يكن بمقدورهما فعل أى شيء .

ولما كان خط ميرزا يحظى باحترام جميع أهل الحي وثقتهم ، وكانوا يعلمون أن ميرزا لم يكن ليضع نقطة واحدة زيادة على أى حرف في أية صفقة . فكان أن أرسل رئيس شرطة الحي إلى ميزان الشريعة الذى حكم بأن يجلد ميرزا أسد الله في محل عمله وسط السوق بتهمة التدخل في أمور ديوان الشرع . وإذا كنتم تريدون الحق ، لو لم يتدخل شيوخ الحي وكبرائه في الوقت المناسب وتأخروا قليلا ، لرحمه الله ولسبق السيف العذل . فقد ذهب عشرة أشخاص أو اثنا عشر برئاسة حكيمباشي الحي الذى كان خال ميرزا أسد الله إلى ميزان الشريعة إمام جمعة المدينة ، وتعهدوا له بالألا يتدخل ميرزا ثانية في عمل حاكم الشرع ، ورضي ميزان الشريعة وقبل ، لأنه وهو الذى فقد الثلث والخمس والزكاة من تركة الحاج عبد الغنى ، لم يكن يريد أن يموت أحد هؤلاء الشيوخ ويظلم بنفس القدر ، فسحب شكوى حاكم الشرع ، كما قاموا أيضا بإرضاء رئيس الشرطة بشكل أو بآخر ،

وهدأت الضجة . وحقيقة الأمر أن كبراء الحي لم يتدخلوا بهذا الثقل احتراماً للحكيمباشي فحسب ، فقد مر جلد كل واحد منهم ذات يوم بمدبغته ، لكن السبب في توسطهم لمصلحة ميرزا أسد الله أنهم هم أنفسهم كانوا يميلون إلى هذا النوع من الصفقات وكتابة العقود والوصايا في الخفاء ، فهم يفضلون الركون إلى شخص قنوع وثقة مثل ميرزا عن الذهاب في أى وقت إلى المفتى أو رئيس الشرطة أو رئيس العسس ، ذلك أنه من أجل أى عمل مالي صغير أو صفقة محدودة ، إذا تقرر ودخلت قدم المفتى وحاكم العرف والبلاط ، تؤخذ بفضاظة حصة للضرائب وأخرى للعشر وثالثة للخمس .. ومال الله ورد المظالم وحقوق أخرى متأخرة ، وأحياناً ما يتم إنفاق ما هو أكثر من أصل الصفقة ، ولهذا السبب توسط كبراء الحي بسرعة شديدة ، وحفظوا ماء وجه ميرزا أسد الله بأنواع من التوسل والرجاء ، كما أقنعوه أن يذهب ويقبل يد ميزان الشريعة بعد صلاة المغرب على رأى من جميع أهل الحي ، وبعد ذلك عليه بقدر ما يستطيع ألا يقوم علناً بمثل هذه الأعمال .

وهكذا كما رأيت ، برغم أن الرزق قد قل في شبكة ميرزا أسد الله ، إلا أنه كان يكتب كل يوم على الأقل من عشرين إلى ثلاثين ورقة وحوالة وكمبيالة وعريضة ، وكان ينفق على أولاده من هذه الأعمال قانعا بها ، وعلاوة على ثقة أهل الحي التي أولوه إياها ، كان يتقن عمله ، فكان أيضاً يجيد الرسم والتذهيب والتشجير والتلوين ، فكان يحصل على زبون أو اثنين من الزبائن المحترمين سنوياً ، يريد كل منهم أن ينسخ

له ديوان حافظ " الشيرازى " أو غزليات ديوان شمس الدين التبريزى ،
أو يُذهب له رباعيات الخيام ، أو يجهز له كتاب زاد المعاد منسوخا
في قرطاس " طومار " . وعن طريق مثل هذه الأعمال كان يشتري الفحم
للشئاء ، وملابس العيد للأولاد .

يا أعزاء القلب .. كانت أعمال ميرزا كلها على هذا النحو ، وكما
قلنا كان يتقن عمله ، وكان ناظرا إلى شخصية الزبون في الأوراق التي
يحررها ، وكان يعلم مع من يتعامل ، وأية ألقاب يخاطبه بها ، كان يتقن
كل شيء ، بداية من الخطاب إلى الأخ أو الأخت ، حتى الشكوى إلى
رئيس الشرطة ورئيس العسس بل والبلاط ، كان يعرف كيف يبدأ وكيف
ينهي ، وكيف يصعد الموضوع بحيث لا ينفرط منه في أى موضع ، وأين
يضع بيت الشعر ، وأين يستشهد بالمثل العربي أو الآية القرآنية .
كما كان قد عرف كافة الدهاليز الحكومية والملكية بل ودهاليز السجن من
كثرة ما كتب من عرائض . وكان يعلم ما يجب على الشاكي أن يفعله ،
ومن يرشو حتى يحصل على نتيجة من شكواه ، ومن كثرة ما كتب من
إيصالات وبراءات ذمة ، كان قد اطلع على أسرار حياة أهل الحي
ومداخلها ، كما كان يعرف ماذا يملك كل شخص ، بل وكم تحت كل
منهم من الزوجات ، وكم لكل منهم من الأولاد ، كان على علم أيضا
بأحزانهم وهمومهم ومشاكلهم ، وعلى سبيل المثال ، إن كان عند أحدهم
عرس أو لا قدر الله عزاء ، أو أن أحدا -خرس لسانى- أفلس أو مات ،
كان ميرزا أسد الله أول من يبلغ ، وذلك لكي يذهب فيعد مشروبات
المجلس وصوانيهم وأقداحه ، أو يرسل لإحضار القزان وحامله ، أو

يكتب الدعوات . وبناء على هذه الخلفيات ، كان أهل الحي كلهم يعرفونه بداية من باب المسجد الجامع للمدينة حتى أنحاء القلعة الحكومية ، وكان بينهم وبينه ود ومعرفة ، ومن الممكن أن نقول أنهم كانوا يحبونه . لكن إذا أردتم الحقيقة ، فإنه لا يمكن الحكم بسهولة على أحوال الناس في ذلك الزمان . ذلك أنه من كثرة مشاغلهم وفضائحهم ، ولأن كل أمر بداية من لقمة العيش حتى زواج البنات ، كان كارثة بالنسبة لهم ، فقد كان لديهم الحق في ألا يفكروا كثيرا في ميرزا أسد الله ، لكن من الممكن الحكم إلى هذا الحد أنه لما كان ميرزا أسد الله أحد احتياجات أهل الحي ، فقد كانوا يهتمون به بقدر اهتمامهم برئيس حفظة الأباريق في المسجد خشية أن يُحصر أحدهم ذات يوم ، ويتأخر عليه الإبريق ، لا أكثر ولا أقل . حقيقة أن تعامل ميرزا أسد الله كان مع القلم ، الذي هو أول ما خلق في الكون ، وكان عالما بالشعر ، ومهما كان فقد كان يختلف اختلاف السماء عن الأرض عن ذلك الذي كان كل تعامله مع الأباريق والروائح العفنة ، ولكن بالنسبة لأهل الحي في ذلك الزمان كان كافيا بالنسبة لإنسان لم يكن يملك حصانا أو بغلا ، ولا حاجب ولا بواب يأخذ أجره منه ، ولا سائس يسرع كالكلب خلف بغله حتى يضطروا لتعظيمه واحترامه ونفاقه ومداهنته ، كان كافيا أن يعتبروه واحدا مثلهم ويتعاملون معه كما يتعاملون مع بعضهم البعض .

حسنا . كان هذا هو عمل ميرزا أسد الله وشأنه . ولنمض الآن لنر ما كان من أمر الكاتب الآخر .

يا أعزاء القلب ، كان السيد ميرزا عبد الزكي من حملة الألقاب ، ويمكن بصعوبة اعتباره كاتب عرائض ، لكن لما كان على أى نحو كان يتعيش عن طريق القلم والورق ، فلا حيلة لدينا في اعتباره من أهل هذه الصنعة ، وهو أيضا لم يكن لديه بد إلا أن يقبل التعاون مع ميرزا أسد الله بحب وود . على كل حال فهذا الكاتب للعرائض كان يملك مكتبا محترما إلى جوار أحد أبواب المسجد الجامع في أول السوق الكبير ، وكان قد فرش به بالسجاجيد الكردية والكاشانية ، ووضع فيه حشايا للزبائن ، وبمجرد أن كان أحد يدلف من الباب ، ويقدر حيثيته وعمله ، كان ينادى على صبيبه ويأمره بأن يحضر ماء باردا من خزان ماء المسجد ، أو يعد له شراب الجلاب ، وهكذا كما رأيتم كان عنده صبي ، وأحيانا كان يحدث في مجلس العظماء والأماكن التي لا يمكن الدخول إليها دون أبهة وعظمة ، كان ميرزا عبد الزكي يقدمه على أنه كان سكرتيه، مع أنه كان أميا . وبعد خروجهما من المجلس ، كان يشبعه تقريرا ويقول له " يا مفضوح ، لو كنت قد تعلمت ، لصرت الآن آدميا من أجل نفسك " وكلاما من هذا القبيل . على كل ، بالرغم من أن ميرزا عبد الزكي لم ينجب ، إلا أنه كان مسعدا ، فكان يملك بيتا من خمس أو ست غرف فيه سلامك وحرملك وسردابان وحوض ، وأبهة . كان كل موضع فيه مفروشا بالسجاجيد المتنوعة، وكانت الغرف مليئة بالثريات والثلاجات والحشايا والصناديق الصغيرة والكبيرة . وكانت عنده أيضا خادمة حاذقة تقوم بكل أعمال المنزل ، بينما كانت زوجته درخشنده هانم تروح وتجيء في وقار

وبهاء ، ولا تمد يدها إلى عمل من أى نوع ، وتجعل من نفسها سيدة
بمعنى الكلمة . وإذا أردتم الحقيقة ، فقد كان هذا حقها ، فهي امرأة
متميزة ، من أسرة خانلرخان مقرب البلاط ، والذي كان من المقرر في
الاستقبال الرسمي القادم أن يُنصب ملكا لشعراء البلاط ، أى أن
درخشنده هانم كان لها حفيد عمه هو في نفس الوقت ابن خال
خانلرخان ، وكانت هذه القرابة في ذلك الزمان شيئا عظيما ،
وتساوى النعرة الكاذبة بها . وثمة أمر يقع وزره على رواة الأخبار
الذين يقولون ، أنه إلى جوار كل هذا ، كانت رقبة خانلرخان في يد
درخشنده هانم ، وبالرغم من أنه ليس من الخير أن يتحمل المرء وزر
غيره ، فإن ميرزا عبد الزكي نفسه كان على علم بالموضبوع ، لكنه
كان يتغاضى ، لأنه لنفس السبب ، وجد الطريق ، وكثر ترده على ملك
شعراء البلاط القادم ، والذي كان يمكنه في أى وقت أن ينظم قصيدة
عصماء في جرس صوت تكريعة وزير الدواب بعد أكلة أرز بالسكر ، أو
ينظم مرثية عندما نفقت -مثلا- جحشة قبله العالم ، فينظمها
ويعطيها لميرزا عبد الزكي لينسخها على قرطاس طويل بقلم مزدوج
ويزين ما حولها بماء الزعفران واللآزورد وأيكات الورد ويأتي بها . كما
كان يتمتع بقدر من الأريحية إلى درجة أنه بمناسبة وغير مناسبة
يذكر إسم ميرزا عبد الزكي أمام السيد نور الدين الصدر الأعظم ، أو
أمام مستوفي الممالك ، كما كان يوصي به في كل وقت رئيس العسس
ورئيس الشرطة .

ومما لا شك فيه أن ميرزا كان يعرف طريقه جيدا ، ولذلك لم يكن

ينتظر من ملك شعراء المستقبل الحتمي أى أجر أو هبة في أى وقت على مثل هذه الخدمات القافهة . فكان كافيا أنه قد وجد الطريق إلى بيته . وفي النهاية كان خانلرخان يقيم استقبالا عاما في الجمعة الأولى من كل شهر في بيته ، مثل ذلك الذى كان يقام في البلاط ، وكان يدعو إليه كل أهله وعشيرته ، كما كان ميرزا وزوجته يذهبان صباح كل جمعة أولى في الشهر ، فيقابلان خانلرخان ، وكان السيدات يمضين إلى الحرملك ، أما الرجال فيظلون في السلامك . وفي نفس هذا المجلس كان كل حاضر ينجز ألف مصلحة .

يا أحباء القلب ... ، في الحقيقة وبناء على هذه القرابة ، كان ميزان الشريعة المفتى أيضا يرجع إلى كاتبنا في بعض الأعمال . فعندما يكون هناك عرس أو تحرير عقد بين كبار القوم ، كان يصطحبه معه ككاتب ، فهو على كل حال كان حسن المظهر ، يلف عمامته بشال أخضر عريض ، ويجيد ارتداء الجبة الكشمير . وكان سلوكه محترما وسليما مع الأعيان ، يعرف كيف يلقي السلام ويسأل عن الأحوال ، ويجيد كل هذا . وإلى أن يتم ميزان الشريعة الخطبة ، كان يستخرج بشق الأنفس موافقة العروس الجوهرة المكنونة ، ويقوم بإعداد العقد وكتابة مقدمته ، ويجعله جاهزا على إمضاء السيد وشهود العقد . والسبب ؟ لأنه كان سيذا ، وقد قالوا منذ سالف العصر والأوان أن مثل هذه الأعمال جديرة بأولاد الرسول ، ولهذا السبب لم يكن ميرزا ينسى الشال الأخضر في أى وقت . وكان قد ألقى في روع الناس أن يده مباركة وأحجبته تجلب الحظ ، كما كان يحرص على أن يعود الناس على

مخاطبته بلقب سيد ، ليس لأن لقب كاتب قليل عليه ، بل لأن كاتب الأدعية لا بد وأن يكون سيدا .

على كل كان ميرزا عبد الزكي يكتب الأدعية ، فيكتب حرز جواد للإعفاء من الجنديّة ، كما يكتب أدعية لدفع الأذى والضرر والحسد ، ولدفع لدغ الثعبان والعقرب ، ولفك عقد البنات ، ولثبات حمل كثيرات الإجهاض ، ولعلاج ألف داء ليس لها دواء ، مما لا يتأتى من الحكيمباشي ، وكان يتقاضى عن كل دعاء من هذا الصنف قرشين من الفضة ، فهو أيضا له تسعيرة ، هذا إذا لم يكن الزبون أحد الأعيان والأشراف ، ولا يمد يده ويترك له عملة ذهبية فوق مكتبه . وكان هذا من ميزات عمل ميرزا عبد الزكي ، فقد كان معظم زبائنه من نساء الأعيان والأشراف ومن أكابر المدينة . كان أغلبهم يرغب في حرز ورقية ضد الحسد ، أو فضلات الضبع وخرزة الحية ، كما كانوا يطلبون في أحيان متباعدة عملا من أعمال السحر والشعوذة . ومن أجل هذا الصنف من الزبائن ، كان ميرزا عبد الزكي يحتفظ في درج مكتبه بنبات يبروج الصفرة ومخ حمار وعقرب ثمر ، ويحتفظ داخل خزانة خلف مكتبه بفأر وقرود وحية وعقرب كلها محنطة . - وماذا يخفى عليكم ؟- أخيرا كان قد أعد تابوتا قديما وتركه ممددا بجوار الحجرة ، وكان قد غطاه بسجادة تركمانية حتى لا يراه أحد ويصاب بالرعب ، وكانت كل من تحتاج إلى " خضة " من أجل الحمل ، أو إبطال عمل من أعمال السحر تنام فيه . وكل من يريد دواءً للمحبة كان يأخذ يبروج الصفرة ومخ الحمار ، كما كان كل من له عدو يأخذ فأرا ميتا وعقرب

محنتا .. وهلم جرا ، وحرصا على العلاقة بين ميرزا وبين زميله ميرزا
أسد الله ، كان يحسب حساب الحكيمباشي ، فلم يكن- بقدر
المستطاع- يضع دواء الشرب في علب وأعمال السحر والشعوذة في
لفائف ، وإذا فعل كان يفعل هذا سرا . وكان يقسم على الزبون
بالأيمان المغلظة ويوصيه ألا يرى أحد لون دوائه ، بل لا يكشفه
للسماء. وكان هذا الدواء عبارة عن تراب قصبة رجل ميت ، وماء غسل
الأربعين لنفساء ، وجذور الخردل ، وتراب مقبرة ، وأشياء من هذا
القبيل ، وكان يعجنها مع خيزران هندي وجوز جبلى وماء زعفران
ويشكلها على هيئة أقراص ، ثم يعطيها للزبون ، ولم يكن ثمن هذا
العمل قرشان ، بل خمسة قروش .

وهناك وجه آخر من وجوه دخول ميرزا عبد الزكي ، فقد كان يعد
الدفاتر للمداحين ، وللفتيان المنعمين الواسمين الذين كانوا يضعون على
رؤوسهم الطربوش الأحمر ملفوفا بشال أخضر ، ويضعون في
أقدامهم المراكيب ، وعلى أكتافهم العباءات الخاجية ، وكانوا ينتقلون من
هذا المنبر إلى ذاك المنبر ، ومن هذا المجلس إلى ذاك المجلس ، وببيتين
من الشعر يمدحون كل الأئمة ، أو يتحدثون عن مصارعهم ، وكانوا
موجودين في كل مكان ، عرسا كان أو عزاء ، وفي أسبوع المولود ،
وفي احتفال الختان ، وفي ولائم عودة الحجاج ، ويقومون بدور الحداة
أمام قافلة من زوار مشهد أو كربلاء .

وكانت تلزم طوامير لهذه الخدمات ودفاتر ، وإذا عقد ميرزا عقدا
احتكاريا مع أحد الصحافين جنوب السوق الكبير ، فكان يشتري منه

الدفاتر ذات الجلد الكشمير الأصفهاني والطوامير ذات الهوامش المختلفة بجلد القيطاني بسعر أقل ، ثم يقوم بملئها بأشعار محتشم أو أحاديث مجالس البكاء وبحار الأنوار أو بأشعار كلیم كاشي والشيخ بهائي^(١) ويبيعها . وكان يحدث أحيانا أن يعطي المعارف لهؤلاء الفتیان بالتقسيط ، لأن كل من كان لديه واحد من هذه الدفاتر والطومارات في أول المحرم ، ولديه صوت متواضع ، يستطيع في العشر الأول من محرم فحسب أن يحصل على نفقات حياته بما يكفي أربعة شهور .

وبهذه المناسبة كان ميرزا عبد الزكي يضع دوى مختلفة الألوان على منضدة منحوتة من قطعة واحدة من الخشب مع زجاجة من ماء الزعفران وطومارات مختلفة الأحجام ومقلمة من صنع تبريز ، وصنفين أو ثلاثة من المساطر ، لأن الأوراق قديما لم تكن مسطرة ، وكان الكتاب مضطرين إلى تسطيرها بأنفسهم ، ولهذا العمل كان لديهم مساطر حديدية وأخرى نحاسية . كانوا في البداية يدقون المسطرة فوق الصفحة بحيث تغوص في أماكن الخطوط ، ثم يشرعون في الكتابة. وهكذا سميت مسطرة .

(١) محتشم هو محتشم الكاشاني شاعر مراشي آل البيت المشهور في العصر الصفوي ، ومجالس البكاء المقصود بها الكتب التي ألقت للتباكي على مصارع آل البيت ومنها روضة الشهداء لمحتشم وطوفان البكاء للجوهري وبحار الأنوار موسوعة ضخمة في تواريخ آل البيت ومصارعهم من تأليف ملا محمد باقر المجلسي وكلیم كاشي شاعر صفوي والشيخ بهائي هو بهاء الدين العاملي الشاعر والفقير الصفوي المشهور . المترجمة .

على كل حال ، كانت هذه خلاصة أعمال كاتب العرائض الثاني وأحواله وحياته . والآن لنهـب فنرى ، كيف كتبت هذه القصة ، وماذا حدث في حياة هذين الكاتبين بحيث اضطر نقلة الأخبار إلى ترك قصص الملوك وأدباء والعظماء والتي فيها الرزق والعيش ، ليتدخلوا في أمور هذين الكاتبين والتي لا أجر عليها في الدنيا ولا ثواب في العقبى

المجلس الثانى

أقول لكم من صميم القلب أيها الأعزاء ... ذات يوم من أيام أواخر الصيف وبداية الخريف ، كان ميرزا أسد الله جالسا إلى فرشته منهمكا في كتابة ألواح الواجبات لأطفال الكتاب ، وكان يكتب لهم "استقم فقد نجا المستقيمون" و "قسوة المعلم أفضل من حنان الأب" ونصائح ومواعظ من هذا القبيل لم يكن هناك تلميذ قط لم يسمعها من معلمه أو من أبيه ، ليس مرة واحدة بل خمس وثلاثين مرة ، كان يكتبها بخط نستعليق مقروء ندى سينات ممتدة ذات نقاط سبع وألفات سامقة مرتفعة ذات نقاط ثلاث ، وكان قلمه يصير صريرا ، بينما كانت الشمس ترتفع ، ويدخل من حلق باب المسجد صهد لا يوصف . وانتوى ميرزا أن يتم عمله قبل حركة مرور صلاة المغرب ، ويجمع فرشته ويذهب إلى البيت . كان ولده جالسا إلى جواره ، يأخذ الألواح المكتوبة واحدا بعد الآخر بمجرد أن تخرج من تحت يد أبيه ، ويضعها فوق لهب شمعة كان قد أشعلها بين قدميه ، وذلك حتى تجف سريعا . وفي أحيان متباعدة كان شخص أو إثنان يذهبان إلى المسجد ، ولأنهما كانا

متعجلين ، كانت الرياح تملأ أطراف أقبيتهما ، فيزداد نور الشمعة اعوجاجا ، ويلوث الدخان أطراف الألواح ، وكانت غمغمة حميد ترتفع، وحدث مرتين أو ثلاثة ، فارتفع صوت ميرزا قائلا :

- لماذا تغمغم بهذا الشكل يا بني العزيز ؟

أجاب ولده: أخيرا يا أبي ، حتام تريد كتابة هذه الألواح ؟

اعتدل ميرزا أسد الله ، ورفع عينيه من على اللوح وسمرهما طرف سطح المسجد ، وتحرك فوق النطع وقال :

- يا بني العزيز ، لا ضير عندي في أن أضع كل هذه الأقلام في حبة عيني ، لقد كبرت الآن ، وينبغي أن تفهم أمور الدنيا ، أعلم أن هذه هي واجبات زملائك في الكتاب أكتبها في مقابل شهرية الكتاب للسيدة معلمتك . قل لي.. كم يدفع أولئك الآخرون من زملاء المكتب شهريا ؟

تلعثم حميد ثم قال : لا أعلم يا أبي ، أحيانا يحضرون دجاجة ، ، وتارة أخرى منديلا معقودا .

قال ميرزا : لا بد أنك تخجل لأنك لا تحضر أبدا منديلا معقودا . أهذا صحيح ؟ أليس كذلك يا حبيب أبيك ؟ ليس عليك أن تخجل ، فهؤلاء الآخرون أولاد الأعيان لا يدفعون في الشهر أكثر من عشرة قروش أو إثني عشر قرشا . وأنت تدفع أكثر منهم . أتعرف لماذا لأن أجر كل واجب من هذه الواجبات وما يكلفه من حبر وقلم ، وما يستغرقه من وقت يتكلف جزء من عشرين من القرش ، فكم يجمع خمسة وثلاثون لوحا مرتين أسبوعيا ؟

قال حميد : سبعين .

قال ميرزا : بارك الله فيك ، إذن ثلاثون يوما في الشهر تجمع أقل من الثلاثمائة بقليل . وهذا هو عمل المعلمة ، ولأن خطها ليس جيدا ، لهذا اتفقت معي ، وكل قرش من عشرين جزء ، إذن يكون مجموعها خمس عشرة قرشا كل شهر . معنى هذا أنك تدفع قدر أولاد الأعيان مرة ونصف . أقول هذا لك حتى لا تعتقد أنك - معاذ الله - أقل منهم . فعيب عملنا أن أباك فقير ، ولا يستطيع أن يحصل على شهرية كتابك من طريق آخر . نعم يا حبيب أبيك ، فعيب العمل أن المال والمكنة لا يوجدان في طائفتنا . وشرع في الكتابة الثانية ، لكن حميدا لم يكن قد اقتنع بعد ، وبدا وكأن شيئا يثقل لسانه ، وقال في النهاية : لماذا يا أبي ؟

قال ميرزا أسد الله وهو منهمك في الكتابة : تسأل عن ماذا ؟

قال حميد مرة أخرى : لماذا لا نملك المال والمكنة ؟

قال ميرزا : وما علمي يا حبيبي ؟ كل وما قسم له ، ويقال من قديم أن الرزق مقسوم منذ يوم الأزل ، هل تعلم معنى يوم الأزل ؟

قال حميد : نعم يا أبي ، فقد كان هذا واجبي بالأمس ، وهو عبارة عن " من بداية صبح الأزل حتى آخر ليل الأبد " ، لكن الخلاصة : لماذا لا يجب أن نكون من أصحاب الأملاك ؟

قال ميرزا : لأن أبي لم يكن من أصحاب الأملاك ، وجدى أيضا لم يكن من الملاك . وأنا أيضا كنت مثلك أذهب إلى الكتاب ، وهكذا كان

أبي ، مع الفارق أن عمل أبي كان أصعب من عملي . أتذكر أن أبي كان يكتب أسبوعياً مائة وخمسين واجباً ، حتى لا تطردني المعلمة من الكتاب .. عجيباً كان ذلك الزمان الصعب . أتعلم يا حميد ؟ كانت بداية الحرب مع أهل السنة ، وكانوا يأخذون الشباب بصورة مجحفة إلى السخرة . وكل الرجال ذهبوا إلى الحرب ، وانتقل العمل من المعلمين إلى المعلمات ، وبداية من ذلك الوقت صارت إدارة الكتاتيب عملاً نسائياً . وكان لدى المعلمة مائة وخمسون طالبا ، متقاربون في الأعمار . وكان العريف أضمرهم جسماً وفي الرابعة عشرة من عمره ، ولم تكن المعلمة في الأصل تعرف القراءة والكتابة ، كانت فحسب تقوم بعمل زوجها الذي كان قد ذهب إلى الحرب وانقطعت أخباره . رحم الله تلك المرأة التي قامت واستطاعت أن تحتفظ بمحل رزق زوجها مفتوحاً ، بينما أغلقت محلات الآخرين ، أقصد المعلمين الآخرين .. ومن هنا كان سبب ازدياد كتابنا .. ماذا كنت أقول يا حميد ؟

قال حميد : لاشيء ، كان الكلام عن فقرنا ، وأنت أخذ في رواية قصة . أنا أريد أن أعلم ، لماذا لا أملاك لدينا ؟ ألم تقل أنت نفسك أنني لا بد أن أفهم أمور الدنيا الآن ؟

قال ميرزا : يا بني العزيز ، أعلم أن المال إن اكتسب عن طريق حلال لا يكون أكثر من هذا ، يكون بقدر ما يستطيع المرء أن يقيم أوده هو أسرته .

قال حميد : ومن أين يحصل عليه الآخرون بحيث يأتي أولادهم إلى الكتاب راكبين الحمير البندرية وخلفهم المربون ؟

قال ميرزا : أى علم لي يا بني ؟ وأى دخل لي ولك بأمر الناس ؟ لا بد أنهم ورثوا .

سأل حميد قائلا : ما معنى ورثوا يا أبي ؟

أجاب ميرزا : الميراث هو ما يؤول إلى المرء عن أمه وأبيه .

سأل حميد مرة أخرى : وماذا ترك لك أبوك من ميراث ؟

أجاب ميرزا بعد أن نفذ صبره وغمغم وتحرك فوق النطع ، ونحى عدة ألواح كانت تحت يده ، وأوشك على الغضب ، لكن لم يطاوعه قلبه ، فهو على كل حال ابنه ويريد أن يعرف شيئاً ، فكان منه أن تنهد وقال :

- الآن تريد أن تعرف ، فافتح أذنك جيداً ، فأبي قد حدثني في هذه الأمور أيضاً ومرة واحدة . نعم يا عزيزي . أودثني أبي نفس ما سأتركه لك . لا أكثر ولا أقل ، عندما دنا أجله رحمه الله ، طلبني ، وسألني قائلا : يا بني العزيز ، على طول ما ذهبت إلى الكتاب ، هل تعلم كم عدد الحروف الموجودة في العالم ؟ ومما لاشك فيه أنني لم أكن أعلم . هذا معلوم ، فخرجت من نفسي وطأطأت رأسي ، وأنداك واصل أبي الحديث وقال : " لا يا عزيزي ، أنت تعلم ، لكنك لا تفهم ماذا كان قصدي ، كنت أقصد أن كل حروف الدنيا إثنان وثلاثون حرفاً ، من الألف إلى الياء ، من أول الكلام إلى آخره ، والآن هل فهمت ؟ أريد أن أقول أن ما أنزله الله وكتبه الرسل في الكتب السماوية ، حتى الكلمات التي قالها الفلاسفة ، واستخدمها الشعراء كحروف روى في

دواوينهم ، حتى ما تقرأونه أنتم أيها الأطفال في الكتاب ، وما كتبتة طوال عمري للزبائن ، كل كلام العالم وأقواله شكلت من نفس هذه الحروف الإثنين والثلاثين ، وبكل لسان تكتب به تركيا كان أو فارسيا أو عربيا أو أفرنجيا . لأفرض أن هناك حرفين زائدان أو حرفين ناقصان ، لا فرق في أصل الموضوع . كل ما هو سب وشتم ، كل كلام مقدس لدينا ، حتى إسم الله الأعظم الذي يدعى الدراويش أنهم توصلوا إليه ، كل هذا الكلام يكتب من نفس هذه الحروف الإثنين والثلاثين . كنت أريد أن أقول معاذ الله أن يغشي هذا العلم القليل الذي لديك عينيك فتدوس الحق بقدميك ، وتذكر أن هذه الحروف هي أيضا أداة عمل الشيطان ، فبها تكتب أحكام إعدام جميع الأبرياء والمذنبين أيضا ، والآن والأمر كذلك حذار أن يجرى قلمك بما هو غير الحق ، وأن تصبح هذه الحروف في يدك أو على الصفحات التي تكتبها أداة لعمل الشيطان " .

وبعد أن انتهى ميرزا من كلامه ، التقط أنفاسه ثم قال :

- نعم يا بني العزيز ، كانت هذه هي وصية أبي ، وكان هذا ميراثه لي لأنني كنت ولده الوحيد . لكنني عندما استمعت إلى هذه الوصية كنت في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين من عمري ، وأنت الآن في الثانية عشرة من عمرك لا تزيد ، لكني أردت الآن أن أقولها لك ، ومن الممكن ألا تفهم الآن ما قاله أبي لي ، لكن عندما تصل إلى سني وتجلس إلى هذه الأدوات ، سوف تفهم أي ميراث تركه لي أبي وسأتركه أنا بدوري لك ، والآن تحرك حتى أنجز هذا العمل سريعا ونذهب .

وبمجرد أن انتهى ميرزا من كلامه ، غرق حميد في التفكير ، وعاد ميرزا ثانية إلى كتابة الواجبات ، فأتى ما تبقى على عجل ، وجمع كل شيء ووضع في منديل مربعات يزدى أخرجه من جيبه . وبينما كان يمشي في طريقه ، قابله صبي ميرزا عبد الزكي ، وقال : " يقول سيدي لك أن تشرفه قليلا عند ذهابك " وأجابه ميرزا " سلم على سيدك ، وقل له سمعا وطاعة ، سأشتري الخبز واللحم للأولاد ، وأتي حالا " وهكذا فعل. وضع فرشته داخل خزانة أحذية المسجد ، وذهب إلى السوق ، واشترى الخبز واللحم اليومي من الخباز والقصاب المجاورين ، ووضعهما داخل نفس المنديل المربعات اليزدى ، وأعطاه لحميـد ليذهب مباشرة إلى البيت ، وذهب هو إلى رفيقه .

يا أعزاء القلب ، كما علمتم كانت تحدث أمور من هذا القبيل ، فكلما كان يعن عمل مشترك بين الكاتبين ، كانا يجتمعان في مكتب ميرزا عبد الزكي ، إذ لم يكن لدى ميرزا أسد الله مكان محترم ، وخاصة إذا كان الوقت شتاء ، وكل وخز برودة العالم ينتشر داخل فناء المسجد ، ويعبر الدهليز ، وينتشر في السوق ، وأيضا إذا كان الأمر يتم بعد العمل اليومي ويتبادلان البوح بالهموم ، وبخاصة أيضا بعد هذا الحوار مع حميد ، والذي كان قد جعل ميرزا أسد الله منهكا بشكل سيئ .

كان ميرزا عبد الزكي قد أضاع المكتب بمشكاة واحدة ، وأمر فأعد الماء والشراب ، ووضع حشية إلى جواره من أجل ميرزا أسد الله .

وتبادلا السلام والتحية ، وجلس ميرزا ، وبعد المجاملات المعتادة ،
بدأ ميرزا عبد الزكي في الحديث قائلاً :

- حسنا يا عزيزي .. ما الأخبار وكيف الأحوال ؟ ماذا تظن عاقبة
هؤلاء الدراويش وإلام تتطور ؟

قال ميرزا أسد الله : وإلام تريد أن تتطور الأمور ؟ الحكاية وما
فيها أن الناس قد وجدوا وليا جديدا ويبحثون عن معجزة .

قال ميرزا عبد الزكي : أنا غير متفائل ، لكن ما أعرفه أن عملنا
كسد هذه الأيام ، فما يتوسل إليه الناس الآن يا عزيزي هو
تكية الدراويش ، لا حرز الجواد .

قال ميرزا أسد الله :- أنت أيضا كل ما تفكر فيه هو
مصلحتك. أليست خسارة ؟ حتام تعتبر رواج مهنتك في فقر الناس
وفي عجزهم ؟ مما لاشك فيه أن الناس يلجأون إليك عندما لا تطول
يدهم مكانا آخر .

قال زميله : ومتى يلجأون إليك ؟

أجاب ميرزا أسد الله : إلى ؟ عندما يكون شقاؤهم قد بدأ
لتسوه . حتى ذلك الذي يريد أن يرسل خطابا إلى القرية ، يريد أن
يبوح بهمه ، فما بالك بمن كانت لديه عريضة شكوى . لكن إذا كنت أنا
أول شقاء الناس فأنت أخسره .

قال زميله : ها أنت يا عزيزي قد خضت في كلامك المعتاد .
ليذهب الناس في داهية . اليوم يوم رائع فقد سقط زبون شديد

الإحترام في شبكتنا . أتعرف من هو يا عزيزي ؟ عصرا جاءت زوجة ميزان الشريعة إلى هنا - أقصد زوجته الأولى - لا تعلم كم تحس بالحق على زوجها . عين من دم وعين من دمع . كانت تريد حجاب محبة يا عزيزي ، حتى تسقط ضررتها الجديدة من عين زوجها . والآن أعلم أنك سوف تعود إلى وعظمي . ولكن عندما يظن الناس وهم في مثل هذه البلايا أن نتيجة تتأتى من حجابك ، ما ذنبك ؟ الغرض ، وأنت تعلم دخلنا ، لقد جاءت ونقلت إلينا خبرا طيبا .

سأل ميرزا أسد الله متعجبا : لنا ؟! يعنى ماذا ؟

قال ميرزا عبد الزكي : إصبر دقيقة واحدة ، لا بد أنك تذكر أنه في الأسبوع الماضي بالتحديد ، قد حدث ثم نزاع بشأن تقسيم تركة الحاج ممرضا بين أولاده ، وتعلم أنهم تصالحوا في النهاية ، لكن لست أظن أنك تعلم من أصلح بينهم ، وذلك من شدة ثقتك في ميزان الشريعة .. نعم يا عزيزي ، لقد تدخل سيدنا بنفسه وأصلح بينهم . لكن بشرط واحد ، وهذا هو مربط الفرس ، والشرط هو أن توقف ثلث تركة الحاج .. هل فهمت الآن يا عزيزي ؟ وهم بدورهم رضوا . كانت زوجة ميزان الشريعة تتحدث في هذه الأمور ، ثم وقبل وصولك مباشرة ، جاء مدير أعمال سيدنا وطلب منى أن أذهب إليه في منزله بعد صلاة المغرب ، وأظن أنه يريد منى أن أذهب لحصر تركة الحاج وكتابة المصالحة وما إلى ذلك . حسنا يا عزيزي .. أنت نفسك تشهد بأنه في أى وقت طالت فيه يدى شيئا ، لم أقصر في جحك ، واللهم لا منسة ، وأظن أنها صفقة ذات عائد مجز ، وقلت أنه لا يرضي الله ألا ينال

أطفالك نصيبا من الغنيمة^(١) والآن قد أخبرتك بالأمر سريعا يا عزيزى حتى تتجهز ، وعندما يتحدد وقت السفر ، ننهض ونذهب معا وننجز المهمة ، فحتى أملاك الحاج أمامنا طريق يبلغ منزلا أو منزلين . الجميل في الموضوع أن رئيس شرطة الحى سوف يصحبنا ، وفرصة أن تصفيا ما بينكما من مشاكل قديمة ، كما أن الأمر نفسه فتح باب أيضا يا عزيزى مع ميزان الشريعة .

قال هذا وسكت ، واستغرق ميرزا أسد الله تماما في التفكير ، ثم رفع رأسه ، وحملق في زميله وقال :

- أطال الله عمرك يا جناب السيد ، فأنت دائم التفكير فينا ، لكنى أظن أن ميزان الشريعة لا يقبل تدخلى هكذا في العمل مع ما بيننا من حساب صغير قديم ، ولا بد أنك لم تنس موضوع وصية الحاج عبد الغنى ؟

قال زميله : وهل من الممكن أن أنساها يا عزيزى ؟ لكن قصدى أنك لا بد وأن تشارك ولنفس هذا السبب في هذا العمل .. وما لزوم أن يعرف أحد ؟ إنك تتعاون معي ، فما دخل ميزان الشريعة ؟ أليس كذلك يا عزيزى ؟ من الممكن أن أخبره عندما ينتهي العمل على خير . وأنذاك سوف يشكرك أنت أيضا . وهل أستطيع أنا وحدى أن أنجز هذه المهمة والحاج المرحوم كان يملك مئات الآلاف ؟

وكان ميرزا أسد الله لا يزال يحملق مشدوها مبهوتا في نقطة واحدة ، ففاجأه قائلا :

(١) حرفيا : ينال أطفالك من هذا اللباد . المترجمة .

- قل لي ، ولأر يا جناب السيد ، من متولى هذا الوقف ؟

قال زميله : حسنا ، معروف يا عزيزى .

كان كاتبانا منهمكين في الحديث ، إذ فتح باب المكتب فجأة ، ودخل منه قروى زرى الهيئة ، وعلى سبيل التحية أطلق صيحة منكرة ، ووضع حذاءه تحت إبطه ، وجلس إلى جوار الباب ، ولم يكذ ميرزا عبد الزكي يسأل أخانا عما حل به حتى ارتفعت صيحاته قائلاً :

- خراب يا بلد .. لقد أخذوا بغلي للسخرة منذ ثلاثة أيام ، ولا يوجد في هذه المدينة من ينجدني ، وكل من يسمع بأمرى ينصحني بالصمت .. في النهاية لماذا ؟ ماذا فعلت ياترى ؟

ارتفع صوت ميرزا عبد الزكي الذى لم يكن ينتظر مثل هذا التطفل قائلاً :

- بهدوء يا حبيبي .. تراك دخلت إلى الخلاء .. ياللا .. مع السلامة .. ربنا معك .. يا عزيزى ..

تحرك القروى في مكانه ، وصاح : - إذن ، ألا يوجد في هذه المدينة رجلٌ رشيد ؟

عندما رأى ميرزا أسد الله أن أخانا في ورطة شديدة ، تدخل وقال لزميله :

- يا سيدى ، دعنا نعلم ما هي شكواه ، أظن أن له شأنًا معي ، وأنا أتعامل مع هذا الصنف من البشر من الصباح وحتى المساء .

ثم التفت نحو القروى الذى كان قد هدأ قليلا وسأله :

-- حسنا يا عزيزى ، قل لي ولأر : كيف أخذوا بكلك للسخرة ؟ هل أنت مدين ؟ أو لعلك لم تدفع مكوس البوابة ، الخلاصة : ماذا فعلت ؟
أخرج القروى حذاءه من تحت إبطه ، ووضعته على الأرض بجواره ، وصاح قائلاً :

- ومن أين لي أن أعلم ؟ كنت قد أحضرت حمل جبن ، لأبيعه وأشتري بثمنه دمورا وبويلين من المدينة ، وبمجرد أن ذهبت إلى السوق وعدت ، رأيت أن بغلي المتعوس غير موجود ، فذهبت ووقعت في لحية صاحب الخان متسائلاً : وأين بغلى ؟ فأخذ يقول لي لا علم لي ، فأقول له : في النهاية يا ابن الكلب ، إذا كنت لا تعلم فكيف تدير خانا ؟ وأنذاك تقاطر على جمع من الناس وأوسعوني ضرباً .

ثم عرض كيف أنه ظل ثلاثة أيام يبحث عن بغله من باب إلى باب ، حتى وصل الليلة متعباً مهدود القوى إلى المسجد ، ليستجير بالله وبالرسول ، وبعد صلاة المغرب ، أوصاه الذى بجواره أن يذهب إلى ميرزا أسد الله . وما إن انتهى من كلامه حتى سأله ميرزا أسد الله قائلاً :

- هل تتذكر أوصاف بكلك ؟

صاح القروى : حتما أتذكر ، فأنا أملكه منذ أربع سنوات .

قال ميرزا : حتى تذكر أوصافه ، عليك أن تتذكر أننا هنا في المدينة ، وعندما تصيح يعرفون أنك قروى ، وحينذاك يخدعونك . فتكلم

بهدهوء مثل أهل المدينة تماما .. هل تعلم ماذا يعنى قطع الرأس بقطنة ؟
هيا .. أذكر لي الآن أوصافه ..

ضحك القروى ، وتحرك وقال : الله يرحم والدك .. أنهي إلى مقام
سعادتكم أن بغلى أحمر قان ، وذيله خالي من الشعر، وكنت قد وسمت
جبهته بخال كالجوهرة .. ثم ، أقول لسعادتكم أن إحدى أذنيه
مثقوبة ، أذنه اليسرى ، عندما كان صغير ثقيبتها أنا بنفسى ،
وحافره الأيمن مشقوق ، كما أرفع إلى عظمتكم .. هيه يا عزيزى .. هذا
يكفى ، فبغل الملك نفسه ليس لديه هذا القدر من الأوصاف ..

ضحك الرفيقيان . وقال ميرزا أسد الله : لا بد أنهم الآن قد
قلموا لك حافره ، ومن الجائز أن يكونوا قد ركبوا له حدوة .. أما
الأوصاف الأخرى فلا يمكن تغييرها بهذه السرعة .. قلت أنهم أخذوه منذ
ثلاثة أيام ؟ حسنا . والآن قل لي : ماذا فعلت بالجبن ؟ بعته أم لا ؟

قال القروى : يا أخانا .. أنت أيضا تلحف في السؤال (١) .. لا
أراك الله سوءا ، لي ثلاثة أيام لم أذق طعاما ، فأى حمار يترك بغله
ويذهب لبيع الجبن ؟!

قال ميرزا أسد الله : حسنا .. الآن وحتى أكتب لك شكوى ،
تهلل في وجه هذا السيد المحترم فهو صاحب المحل ، وكلانا ضيف عليه .
وتركهما لحالهما ، وانشغل بكتابة الشكوى للقروى ، وعندما أنهى كتابتها
قرأها مرة بصوت مرتفع كعادته ، ثم طواها وأعطاهما للقروى ، وقال :

(١) حرفيا : تسأل عن أصول الدين ، المترجمة .

- إفتح أذنك جيداً ، تبيع من حمل جيبك عدلاً حتى تكون في يدك نقود ، وتحولها كلها إلى نقود " فكة " ، وبداية من حارس الباب حتى حاجب غرفة رئيس الشرطة ، في البداية تضع في يد كل منهم قرشاً ثم تقول ما لديك حتى يفتحوا لك الطريق ، والعدل الآخر تضعه على كتفك ، وتحمله مباشرة إلى حضرة رئيس الشرطة ، وتعطيه إياه مع هذه الشكوى حتى يردوا عليك بغلك ، وكما كتبت لك في هذه الشكوى ، تقول أن زوجتك كانت مريضة ، وأنت كنت قد حضرت لعرضها على الحكيمباشي ، وليس لديك الآن مطية للعودة بها ، وإن شاء الله في المرة القادمة أحضر لك حمل زبيب و .. كلام من هذا القبيل الذي قلته لك .. ولا شك أنني كتبت كل هذا ، لكن عليك أن ترويه بلسانك ، وفي المرة القادمة ، إحرص على ألا يكون لك عمل في المدينة . !!

وارتفع صوت القروى الذى كان مبهوتا :- لماذا ، الخلاصة لماذا ؟
هل سرقت مال أحد ؟

وفي النهاية أفهمه كاتبانا أن كل هذا من المتبع في المدينة ، ومن سوء حظه أن حكومة هذه الأيام تأخذ كل دابة للسخرة ، وأنه إذا أراد أن ينعم بوصال بغله ، عليه أن يغض الطرف عن عدل من جيبه .. وكلام من هذا القبيل .. وفي النهاية قنع القروى ، ونهض مغمماً والشكوى في يده ، وأوشك على المضي . ونظر ميرزا عبد الزكي إلى رفيقه الذى كان قد سمر عينيه صامتا على ورود السجادة ، وقام نصف قومة ، ونادى قائلاً :

يا مشهدى ، أين أجر الكتابة يا عزيزى ؟

إذ أمسك ميرزا أسد الله بيد رفيقه ، وقال :

- أترك المسكين .. أعندك صبر ؟

جلس ميرزا عبد الزكي ، وتاه القروى وسط ظلمة دهاليز المسجد ..

وتنهد ميرزا أسد الله وقال :

- رأيت يا سيد إلى أى حد ساءت الأحوال ؟ فى مثل هذه

الأيام عندما تتدخل قدم رئيس الشرطة فى صفقتك ، فمن حق المرء أن

يرتاب ، وأن يسأل نفسه : ترى ما هو المخبوء خلف هذا الظاهر ؟^(١)

وأظن أن لرئيس الشرطة نصيبا من صفقتك .. هذا ما لاشك فيه .

أجاب زميله : كم أنت متشائم يا عزيزى !! قلت أن متولى الوقف

هو ميزان الشريعة نفسه ، وإذا أتى رئيس الشرطة بصحبتنا ، فلعن

الأمر يحتاج إلى مساعدته .. فى النهاية أن هذا الصنف من الصفقات

يكون فى زماننا قبض ربح ما لم يكتب يا عزيزى ، وكل واحد من

الطرفين يمكنه أن ينكص عنها فى لحظة ، لكن - يا عزيزى - عندما

يكون ممثل الحكومة فى رفقة المرء ، لا تكون هناك الجرأة على ارتكاب

هذه السخافات .

استغرق ميرزا أسد الله فى التفكير ثانية ، ثم سأل بعد لحظة :

- هل أنت متأكد أن الأمر على هذا النحو ؟ وفى النهاية : ما هو

نصيب رجال الدولة ؟

(١) حرفيا : أى نصف طبق تحت هذا الطبق ؟ . المترجمة .

أجاب زميله قائلاً : لقد شاب شعرنا في هذا العمل يا عزيزى ؟
الخلاصة إن لم أكن أنا متأكدا ، فمن يكون المتأكد ؟ وأساسا : ما دخل
رجال الدولة في هذا الأمر يا عزيزى ؟

قال ميرزا أسد الله : على كل حال ، إن الدب لم يُصد بعد . وعلى
كل حال إذا كان الأمر على هذا النحو الذى تقوله ، فما المشكلة هنا ؟
ولو خطر ببال معاوية بن أبي سفيان أن يسير خطوة في سبيل الله ، هل
تجوز مساعدته ؟ أجل ؟

قال زميله : أتعلم يا عزيزى ؟ إن ميزان الشريعة ليس سيئا إلى
هذا الحد الذى تتصوره ، ثم : أى دخل لنا بما يختفي خلف ظواهر
الناس ؟ وهل يبوح الناس بواحد في المائة مما في قلوبهم ؟ ولماذا نبعد
يا عزيزى ؟ خذ زوجتى مثلا ، يعلم الله يا عزيزى أنني أموت كمدا منها ،
ولا علم لي بما يدور في رأسها ، والآن موضوع الطلاق مطروح بيننا ،
والمهلة أسبوع ، وأنا لا أخفي عليك شيئا يا عزيزى ، فالشيطان
يوسوس لي قائلاً : هيا ، اذهب إلى ميزان الشريعة وخلص نفسك من
شرها ، هيا .

قال ميرزا أسد الله : يا سيد .. أى كلام هذا ، بعد ثمان أو عشر
سنوات من الحياة الزوجية عيب أن تتفوه بمثل هذا الكلام .

قال زميله : وهل تعرف هذه المرأة معنى العيب يا عزيزى ؟ مهما
أقول: يا امرأة .. ربما لم يشأ الله ، ربما يكون من مصلحة المرأة أن
تبقى بلا أطفال ، وهل هذا يؤثر فيها ؟ مهما أقول لها : يا عزيزتي ..

أنظري إلى حياة ميرزا أسد الله ، واعتبري أولاده أولادك .. أنظري .. بعد كل هذا العمل الشاق لم يستطع حتى الآن أن يقتني لنفسه حانوتا .. لماذا ؟ لأن كل ما كسبه يا عزيزتي أنفقه على أولاده .. لكن يا عزيزي .. هل تفهم هذا الكلام ؟ سبعة أيام في الأسبوع شجار بيننا بسبب عدم الإنجاب ، صدقني يا عزيزي : الآن لي أسبوعان وأنا لا أجرؤ على تناول طعام في بيتي من كثرة ما تضع في طعامي من أعمال السحر والشعوذة ، وإن يكن قسمني بحياتك أقسم بروح أبي ، أن كل يوم يختلف مذاق طعامها عن سابقه ، هذه الحيزبون ظنت أنها من الممكن أن تبيع الماء في حارة السقائين^(١) ، فمن مذاق طعامها أعرف أى سم زعاف دسته فيه . والآن لي أسبوعان وطعامي من كباب السوق فحسب، صبحا كباب ومساء كباب ، وفي البيت أتجنب شرب كوب من الماء . في النهاية فقدت الثقة يا عزيزي .. أتكون هذه حياة ؟ لا تجرؤ داخل منزلك أن تطفح بالسم الهاري لقمة واحدة ؟! وأخيرا راسها وألف مركوب قديم^(٢) : الآن ومن كل بد نقوم ونذهب إلى حكيمباشي البلاط .. والآن على أن أكون ساذجا ، والآن يا عزيزي وقد دقت على هذه النعمة . حقا إن الطبيب طيب ، لكن حكيمباشي البلاط هذا من ربائب نعمة

(١) حرفيا : تتشقلب أمام البهلوان وهو التعبير المقابل في اللغة الفارسية . المترجمة .

(٢) حرفيا : وضعت قدميها في فردة حذاء واحدة وهو التعبير المقابل في اللغة الفارسية .

لخانلر خان مقرب الديوان ، تريد أن تحملني إليه لكي تجعل منه أحد شهود طلاقها ، وتقول : والآن يا عزيزى إن لم تكن واثقا في علاجي فإذهب وعالج نفسك ، والحق معها... يا عزيزى منذ بداية هذا الأسبوع والشجار دائم ، وديني وإيماني إنها قالت : أمامك مهلة أسبوع ، وإلا أقوم وأمضي إلى دار أبي ، والآن : قل لي يا عزيزى ماذا أفعل ؟

هز ميرزا أسد الله رأسه وقال : الأمر بسيط للغاية . قم فلنذهب إلى الحكيمباشي الخاص بنا ، فلا ضرر في هذا ، والطبيب طيب ، وسترضى زوجتك بهذا .

قال زميله : هه يا عزيزى ، هذا في حد ذاته هو دائي الذي لا دواء له ، أنني لا أستطيع الذهاب إلى خان داوي ، أأست تعرفه؟ ، إنه شخص صفراوي ، وأأست تعلم ما يكنه لي من حقد ؟ وإن قمنا يا عزيزى وذهبنا إليه وصار معلوما أن .. هه أى علم لي بالنتيجة يا عزيزى .. أتتذكر ماذا حدث ونحن في السنوات الأخيرة من الكتاب ؟ تلك الخادمة التي عقدوا عليها عقد زواج متعة بي ؟ ربنا يذلها .. أخشى أن يكون ما بي مما أعطتني إياه الله يحكمها ظلت تغويني .. يا عزيزى .. كم من مرة بعد الظهر في أيام الصيف كانت تنزل إلى الحوض عارية أمامي ، حتى فقدت إرادتي .. وحدثت الفضيحة التي تعلمها .. ليتها كانت قد ماتت فجأة ولا أضطر إلى زواج متعة بها طيلة أربعة شهور ، الحقيقة يا عزيزى أنني من نفس هذه الشهور الأربعة ، فهمت أية مصيبة نزلت برأسي ، وعندما أرسلتها إلى أبيها في القرية ، شمت أُمي خبرا ،

وأخذتني إلى خان دايي خالك ، وأطال الله عمره ، أنقذني تماما .. لكن ماذا يخفى عليك يا عزيزى .. أخشى أن يكون هذا العقم نتيجة لهذه الشهور الأربعة .. إذا قمنا الآن يا عزيزى ، وذهبنا إلى الحكيمباشي ، وصار معلوما أن الأمر كذلك .. حينئذ أية فضيحة آتي بها إلى نفسي ؟ وإذا كنت أنت موجودا وقيل هذا الكلام أمامك وقمت بنقله لزوجتك يا عزيزى ؟ ناهيك عن كونها امرأة من أهل خانلرخان ولها ألف خاطب .. وأنذاك : إن فقدت زوجتك أى فضيحة تقع على رأسك يا عزيزى ؟

تحرك ميرزا أسد الله وحك قدمه اليمنى قليلا وقال :

- أولا : من أين يكون معلوما أن الأمور ستكون كما تقول ؟ ثانيا : قيل من قديم الأزل أن الطبيب هو كاتم أسرار المرء ، وإذا كان الأمر قد نفذ ، فإن خان دايي رجل يعرف أن الله لا يرضى أن تسوء العلاقة بين رجل وزوجه إذا تحدث . إذا شئت فلنذهب سويا إليه حتى تعرض عليه الأمر برمته ، وأنا أيضا سوف آخذ عليه عهدا بأن ينسى ما مضى ويعالجك .

قال ميرزا عبد الزكي : تحمل هذه المشقة من أجل رفيقك أدعو لك طوال عمري ، وصدق يا عزيزى أنك تنقذني من شقاء مقيم . ويعلم الله سبب ما أنا فيه .. ومن الجائز أن يكون العيب من المرأة نفسها يا عزيزى .. أليس كذلك ؟ والحكيمباشي يستطيع أن يفصل في هذا الأمر أفضل من أى شخص آخر ، في ذلك الوقت نستطيع أن نطلب منه

أن يرسلها إلى قابلة .. أليس كذلك ؟ فليس العيب يكون في الرجال
فحسب يا عزيزي ، والآن قل لي .. ألا تستطيع أن تدعوه إلى بيتك ؟

قال ميرزا أسد الله : أنت تعلم أنني لا أملك أكثر من غرفتين ، ولا
شك أنني لا أقصد الحرج ، فأنت تعلم كل شيء عني ، وهو أيضا خالي ،
وربما يريد فحصك في مكان خال ، ومن الأفضل عندما يريد المرء
الطبيب أن يذهب إليه في عيادته ..

ثم سكت، وهز رأسه أكثر من مرة وقال :

- ليكن .. هذا من أجل خاطرك ، غداً صباحاً سوف أخلي البيت ،
سأرسل الأولاد خارجه وأقول لخان داوي أن يأتي مبكراً .. لكن إياك أن
تعطله .

وهنا انتهى الحديث بينهما ، وودع كل من كاتبينا الآخر .
وبمجرد أن خرج ميرزا أسد الله من المكتب ، ذهب رأساً إلى بيت
الحكيمباشي ، وسلم على زوجة خاله ، وكتب عدة كلمات لخاله الذي كان
قد ذهب لعيادة مريض ولن يعود بسرعة ، ثم ذهب إلى بيته . وتناولوا
العشاء ، وذهب الطفلان إلى فراشهما . وحدث ميرزا أسد الله زوجته
بكل ما حدث وحتى هموم ميرزا عبد الزكي وما اتفقا عليه من أجل
صباح اليوم التالي مع الحكيمباشي . ثم سألها بعد ذلك عما هو
موجود من أرز وسمن في البيت ، وما يجب على زوجته أن تفعله في
غيابه ، ثم قال :

- أتعلمين يا امرأة ؟ إن الفراغ يؤذي زوجة زميلي ، يجب أن

تشغلى يدها بعمل .. تنهضى عند استيقاظك وتذهبين إليها ، وتدفعينها إلى نصب نول لنسج السجاد في منزلها ، وتقومين أنت بمساعدتها .. وبمجرد أن تمسك بطرف خيط العمل ، فقد انتهى كل شيء ، هل فهمت؟ وهذا منذ صباح الغد ، لأن خالي سوف يحضر ليفحص ميرزا هنا .
ثم نام الزوجان وهما في غاية الصفاء .

المجلس الثالث

يا أحبباء القلب .. غداة ذلك اليوم خرجت زرين تاج هانم من البيت بصحبة حميد وحميدة . اتجه حميد إلى الكتاب ، وقرأت السيدة زرين تاج دعاء ونفخته في باب المنزل ، وعندما أغلقته بالمزلاج أوصت به إحدى جاراتها ، وأخذت بيد حميدة ، واتجهت إلى منزل ميرزا عبد الزكي . عبرت الأم والابنة من حارتين داخليتين وسوق ، وبعد ربع ساعة وقفنا خلف باب كبير به رؤوس مسامير على هيئة ورود نحاسية ، وقرعنا الباب . وإلى أن فتح الباب ، التفتت زرين تاج هانم إلى حميدة وقالت :

- فهمت يا حبيبتي ؟ أريد منك أن تلفي وتدورى حول درخشنده هانم ، وتخيلي أنها خالتك ، ولا تنسي أن تقبلي يدها ..

عندما فتح الباب ، اصطحبتهما الخادمة البضة إلى غرفة الضيوف التي كان الكرسي قد نصب فيها في ذلك الوقت المبكر ، وإن لم يكن قد أوقد بعد . أخذت الخادمة عباءة زرين تاج هانم وطوتها ووضعتها داخل بقجة ووضعتها على الرف ، وأحضرت طراحة منزلية ، وقدمت لهما النُّقل ، ومضت لتخبر سيدة البيت . وظهرت سيدة البيت أي درخشنده هانم

بعد ربع ساعة ، وتبادلنا التحيات والسؤال عن الأحوال . وقامت حميدة بالواجب ، وبعد أن انتهت التحيات المعهودة و عبارات من قبيل " عجباً أن خطرنا ببالك " ، وضعت درخشنده هانم حبة من النقل في فم حميدة وأجلستها فوق ركبتها ، وبدأت زرين تاج هانم في الكلام :

- ماذا يخفى عليك ؟ عندما كبر الأولاد وقلت احتياجاتهم ، ملأتني البطالة بالأفكار والهموم ، صرت - بعيداً عنك - موسوسة ، قابعة في البيت وراء وساوسي ، والوساوس تجعل من الحبة قبة^(١) لماذا تأخر ميرزا الليلة ؟ لماذا كانت حصيلة اليوم أقل ؟ لماذا يريد أن يقوم ويسافر؟ وأشياء من هذا القبيل ، بعيد عنك ، لي فترة وأنا على هذا المنوال . في النهاية جلست مع نفسي وفكرت قائلة : الخلاصة ، هذا لا يحتمل ، وقلت لنفسي : يا امرأة ، أنت الآن في بداية حياتك ، عليك ألا تصيبي نفسك بالجنون بهذه الأوهام ، وتعجزين نفسك ، انهضي ، ودعك من هذا ، وقومي بعمل ما .. وأنت أيضاً تعرفين نسج السجاد .. ويرحم الله كل من مات ، فألمي الحبيبة تعبت كثيراً إلى أن علمتني هذا الفن .. القصد أنني فكرت في هذا منذ فترة .. لكنني أرى أنه في جحر الفأر الذي نعيش فيه لا يوجد لدينا مكان لهذه الأعمال الضخمة . ثم إن ميرزا أسد الله لا يملك شروى نقيير^(٢) ، فما بالك بشراء الصوف والغزل ، وكان أن خلوت لنفسي ثانية وقلت : حسناً يا امرأة ، انهضي وازهبي إلى

(١) حرفياً : تجعل من الأوزة مائة . المترجمة .

(٢) حرفياً : لا يملك آهة يتاجر فيها مع نواح . المترجمة .

درخشنده هانم ، سلمي عليها ، واسأليها عن أحوالها ، ثم حدثيها عن الأمر بصراحة ووضوح ، فعندها - والحمد لله - المكان والنقود ، ثم إن قلبها رحيم ، ولا شك في أنها سوف تساعدك ، أنصبي نولا داخل إحدى غرف منزلها ، وعليك العمل ، ورأس المال على درخشنده هانم .. وقومي بتجارة محترمة .. ومن هنا جئت إليك .

وبدلا من أن تجيب درخشنده هانم ، وضعت في فمها حبة نقل ، وقدمت حبة أخرى إلى زرين تاج هانم ، ولم تكذ تقول شيئا ، حتى واصلت زرين تاج هانم كلامها :

- وحياتك - ليس هذا فحسب - بل وحياة ولدي ، إن أهل السوق ما فتنوا يلحون على ، لكن لو تعلمين مدى تزلزلت زوجي ، إنه لا يقبل أن أذهب إلى منزل أحدهم لأنسج السجاد وأشغل نفسي ، ومهما أقول له : يا رجل ، خسارة أن أنسى هذه الصنعة ، ثم إنها ذات عائد وإن كان قليلا ، إلا أنه يساعد في معاش الأولاد .. فهل أثر فيه الكلام ؟ في النهاية خطر لي أن ألجأ إليك . تعلمين أنه ليس بين زوجي وزوجك أي سر . وهو لا يستطيع أن يتعلل هنا . وكان أن قلت : لأنقض وأذهب ، على بركة الله ، لألجأ إلى درخشنده هانم .

كان النقل لا يزال بين شذقي درخشنده هانم ، وهي تنصت ، فابتلعت ريقها وقالت :

- والله ما عندي أي مانع .. لكن يا زرين تاج يا جيبتي ، يعلم الله إلى ماذا سيؤول نهايتي مع هذا الرجل القدم .. مع هذا الخسيس ..

وأنا غير مطمئنة على غدى .. وأيضاً مع عدم وجود أطفال .

قاطعتها زرين تاج قائلة :

- يا أختى .. في أى شيء تفكرين ؟ أنظري إلى شكلي ، هل يصدق أحد أنني امرأة في الثلاثين ؟ لقد قال القدماء أنه في كل ولادة يتهدم عماد من أعمدة الجسم ، فما بالك وقد وضعت ست أو سبع مرات ، وأيضاً بأى ذل وشق أنفـس !! وتصلـ روح المرء إلى الحلقوم حتى يعيش أحدهم وينجو بحياته من الحصبة والسعال الديكي والإسهال الدموى .. وهل ظننت أن زوجي قد توجنى بإكليل من الزهور ؟ وهل يوجد من بينهم من هو نسيج وحده ؟ كلهم على نمط واحد .. كلهم مجرد كرش على المائدة .. الفرق أن أحدهم جيبه " مخروق " ، والآخر لا جيب له أصلاً .. وإن ربطت الواحدة مصيرها بهؤلاء الأزواج ، فسوف تصاب بالشيخوخة مثلي .. ليست الخسارة على شبابك يا أختى ، ولا يحدث دائماً أن تكون المرأة مع زوج .. والله يعلم ما سيأتي به الغد ، يرحم الله أُمي ، عندما ماتت ، كنت أكاد أجن مع زوجة الأب البشعة التي بليت بها ، لكنى عندما كنت أجلس أمام النول ، كانت كل المتاعب والمشاكل تصبح بقدر عقدة سجاد تعقد ما بين الخيوط .. ولو لم يكن هناك نسيج سجاد لكنت قد مت حزناً وكمداً على فقد أُمي .

أخذت درخشنده هانم تلين قليلاً قليلاً وأجابت قائلة :

- في النهاية يا زرين تاج .. سوف يجلس الناس في النهاية ويتهامسون قائلين : إن فلانة تعمل بنسيج السجاد ، حقاً إن هذه

الأعمال لا تقلل من سيادة سيده ، لكن هناك أيضا خاتلرخان مقرب الديوان ...

قاطعت زرين تاج هانم درخشنده هانم وقالت :

- يا أختي .. كيخسرو نفسه مع كل أبهته وعظمته ، عندما مر بأرض الروم كان يتكسب من الحداة ، ثم إنك إن شاء الله عندما تصبحين أستاذة ، ويكون بمقدورك قراءة التصميم ، سترين كيف سيأتون ويتوسلون إليك - أبعد الله عنك كل سوء - فأنا الناسجة وأنت التي ستشرفين علي ، والحمد لله ، لست محتاجة أو عاجزة .. وأطال الله عمر السيد الذي تساوى شعرة واحدة منه كل الأزواج ، فهو سيد من نسل آل البيت ، بركة الدهر .

ولانت درخشنده هانم من جراء هذا الكلام ، وفي النهاية وافقت . ثم نهضتا وذهبتا لتفقد غرف المنزل ، واختارتا غرفة بجوار الحوض منعزلة وهادئة وفيها كوة . وعلى الفور أرسلتا الخادمة لتحضر النجار الموجود على ناصية الشارع ، وقرر النجار أنه في خلال يومين سيتم تركيب النول ، وقررتا أن ينظر ميرزا عبد الزكي الطالع ، بحيث تبدأ في يوم مبارك وساعة مباركة في نسج سجادتين صغيرتين نواتي صرة .

يا أعزاء القلب .. والآن اسمعوا ماجرى بشأن كاتبينا العزيزين . ما إن خرجت زرين تاج هانم مع الطفلين حتى وصل ميرزا عبد الزكي . وكان باب المنزل مفتوحا فاندفع مرة واحدة . وكان ميرزا أسد الله

جالسا بجوار شجرة نوار الليل الوحيدة في الحديقة الصغيرة وهو يستخرج منها بعض البذور . وتبادلا التحيات ، وبدأ ميرزا عبد الزكي في شرح ما جرى في الليلة الفائتة مع ميزان الشريعة ، وأنهما حددا يوم السفر ، إذ انصفق الباب ، ودخل الحكيمباشي مغمما ومحدثا جلبة وارتفع صياحه قائلا :

- يا أهل الدار ، لماذا ترك باب هذه الخرابة مفتوحا على مصراعيه وكأنه باب الرياط ؟

وذهب ميرزا عبد الزكي إلى حجرة الضيوف ، وأسرع ميرزا أسد الله إلى الباب وأغلقه خلف خان داوي . ودخلا معا . وتبادلا التحيات والاعتذار عما سلف ، ثم عرض ميرزا أسد الله الموضوع ، ولما كان الحكيمباشي رجلا مجريا وحاذقا ونكيسا ، فقد سحب يديه على ركبتيه وقال :

-كنت أعرف .. نعم كنت أعرف أنك في النهاية ستجبر بمغسلنا .. لكن اذهب واشكر الله أنك جئت قبل مجيء عزرائيل إليك ، وجئت بمحض إرادتك ، وإلا كنت قد عرفتك ، ولو كنت النبي الخضر ، وكان في أحجبتك وسحرك ماء الحياة .. ما كان لك خلاص من يدي هاتين .. !!

وعندما رأى ميرزا أسد الله أن خاله قد بدأ ، تدخل قائلا :

- خان داوي .. أنت أيضا والله غير متسامح .. بالله ، وبرأس جده، أنه لم يعط أحد منذ فترة طويلة دواء يأكله .. وأنا شاهد ..

عبس خان داوي وقال لميرزا أسد الله :

- حسنا .. ذكرتني يا بني الحبيب .. فقد ذهبت ، وتعبت حتى وجدت وصفة جديدة لرفيقك .. ماذا تظن ؟ وصفة للمحبة مجرية جيدا . كانت في هامش أحد كتب الأدعية .. دعنى أجده ..

ثم بحث في جيوب قبائه ، وأخرج من جيب منها ورقة مطوية، وألقى عليها نظرة وقال :

- ها هي .. وجدتها .. ها هي الوصفة .. أنصت جيدا .. يجب أن تقول لزوجتك أن تجضر قميصا ، ثم تقوم بغسله بماء المغسل ، ثم تنشره على قبر قتيل حتى يجف ، ثم تأخذ وسخ ظفر ميت وتذيبه في ماء الزعفران ، ، ويمداد تحصل عليه بهذه الطريقة ، تكتب هذا الورد على أكمام القميص ، وتعطيها إياه لتلبسه .. خذ .. هذا هو الورد .

ومد الورقة المطوية إلى ميرزا عبد الزكي وقال :

- وإياك أن ترى السماء لونه !!

ضحكوا ثلاثتهم ، وأضاف الحكيمباشي قائلاً :

- لا تتضايق منا يا جناب السيد .. أردت فقط أن أمزح .. والآن ، انهض يا ميرزا واذهب ، فجهز لنا الماء والعصير حتى نرطب أفواهنا .. ثم أرى مم يشكو عبد الله هذا .. خرج ميرزا أسد الله من حجرة الضيوف ، وذهب إلى خزان الماء ، فأحضر ماء باردا ، وبهدوء شديد أعد في حجرة المعيشة مشروب الخل بالعسل ، وبينما كان يبحث عن صينية ناداه الحكيمباشي . عندما دخل ميرزا ، رأى رفيقه منتحيا جانبا

من الغرفة وهو شاحب الوجه تماما وفي حال لا يوصف ، فوضع لورق
العصير في وسط الغرفة ، وجلس ، وبدأ الحكيمباشي في الكلام :

- أردت أن أقول هذا الكلام لرفيقتك في حضورك .. فهو لا يعاني
شيئا وهو سالم معافى تماما . أنت تعلم أنك في حكم إبني ، فأنت
الوحيد الذي بقيت من نسل كل إخوتي وأخواتي ... وإن ابتليت بهذا
الداء ، لا شيء يتأتى من يدى . أتفهم ما أريد أن أقول أم لا ؟ الله يعلم
لماذا لا ينجب رفيقتك ، وأنا أعرف تاريخ مرضه ، لكن عقلى لا
يتوصل إلى شيء لعلاج .

نظر ميرزا إلى رفيقه الذى كان قد ألقى وشحب لونه ، وكان قد
سمر عينيه على زهور السجادة ... وقال :

- في النهاية يا خان داوي ، كنت قد وعدت ميرزا أنك سوف تنسى
كل ما مضى ، وكل ما في وسعكم ...

قاطع الحكيمباشي كلام ميرزا وقال :

- هل جنتت يا بنى الحبيب ؟ عندما كنت أفحصه نسيت أصلا
أنه هو نفس الشاب الذى جاء إلى مع أمه منذ عشرين عاما .. وأساسا
صارت عادة عندى يا بنى العزيز ، عندما يدق نبض أحدهم تحت
أصابعي ، أغمض عيني ولا يعنيني نبض من يكون ، إذ يكفيني أنه نبض
إنسان ينبض . وأنا أقوم بهذا العمل منذ خمس وأربعين سنة .. ولا بد
أنكما أيها الكاتبان قد جلستما وتخيلتما أنه لما كان أخونا هذا يكتب
الأدعية ويطعم الناس السحر والشعوذة ، فلا بد أن قلبى مغلول منه أو

أنه يجعل عملي وهو الطب يكسد .. انتبها ، إن نصف مرضاى في الأغلب هم أنفسهم الذين صارت بطونهم وأمعائهم عليّة نتيجة هذه الأصناف من أدوية عجائز النسوة وعلاجاتهم . نحن الأطباء نتكسب من بركة جهلكم .. ثم أى ضيق يمكن أن يكون لدى منه ؟ إن الذنب في النهاية ليس ذنبه ، إن لم يكتب هو الدعاء يكتبه غيره ، والناس أنفسهم جهلة ، فهم لا يفهمون أن الطب مساعدة لعالم الخليقة ، وماداموا لم يفهموا هذا ، فإنهم يمشون ويسلمون أنفسهم إلى عمال الشيطان المأجورين .. فإذا كان كل رجال الدولة من المشعوذين والمنجمين وقراء الطالع .. ماذا يُنتظر إذن من الناس العاديين ؟

تدخل ميرزا أسد الله الذى كان يعلم إن خاله إذا انطلق في الكلام ، فإنه لا يقلع على وجه السرعة ، وسأل:

- حسنا يا خان داوي ، الآن تفضل وقل لنا ماذا عليه أن يفعل ؟ الخلاصة نريد وصفة ، أو دواءً أو علاجاً أو أى شيء .

قال الحكيمباشي : يا بني العزيز ، أفضل أطباء المدينة لا يستطيعون أيضاً عمل شيء ، وأنا أيضاً لي مكائتي . أحيانا في مهنة الطب هذه نصادف أشياء تثبت عجز البشر ، فعندما لا يكون سبب العلة معلوماً ، ماذا يتأتى من يد الطبيب ؟ ورفيقك لا يشكو شيئاً في الظاهر ، وربما تحمل زوجته غداً .

قال ميرزا أسد الله :- الخلاصة يا خان داوي أن هذا السيد في ورطة شديدة . فزوجته بسبب هذا الأمر تنكد عليه ، ولا بد من عمل

شيء له ، أنت تعلم أنه عندما تياس زوجة المرء ، تصل الأمور إلى مناطق حرجة .

كان ميرزا عبد الزكي لا يزال قابعا ، لا ينبس ، فألقى عليه الحكيمباشي نظرة وقال :

- كنت أستطيع أن أصرفه بقرصين . لكنك واسطة في الأمر يا بني ، فالعلاج والدواء ، أو المبهيات ، أو تغيير الزوجة ، ليس من المعلوم أي منها يمكن أن يكون علاجاً له . الأمر هو ما قلت ، إلا أن يتولاه الله برحمته . وفي مثل هذه الحالات حدث كثيراً أنه بعد عشرة سنوات أو عشرين سنة من اليأس ، انحلت عقدة الأمر من تلقاء نفسها ، ثم أنه لو كان من المفروض أن يكون لكل أهل هذا الزمان نسل ، لأصبح الإنسان مثل نبات حمص الأمير ، ما إن تلمسه حتى يلقي بقبضة من البذور . لكل أمر حكمة ، وفي رأيي أنه من الأفضل أن يسلم ميرزا عبد الزكي بقضاء الله ، ولو أطاعني ...

وفجأة ارتفعت نهنيات بكاء ميرزا عبد الزكي ، وكان قد وضع رأسه بين ركبتيه ، وهو ينشج بالبكاء ، بحيث كان كتفاه يهتران ، وتبادل ميرزا أسد الله والحكيمباشي النظرات ، وأسرع ميرزا أسد الله خارجاً يأتي بالجلاب ، وقال الحكيمباشي بلهجة فيها لوم :

- عيب يا جناب السيد . أشكر الله أنك سليم البدن . وأنا قد قلت من أين نعلم أن زوجتك لن تحمل في الغد ، ثم إنه إذا كان قلبك تواقاً هكذا إلى الأطفال ، فامض ، والتقط واحداً من هؤلاء الأطفال المشردين وربّه .

هذا إذ دخل ميرزا أسد الله برشاشة ماء ورد ، ورش رأس رفيقه ووجهه ، ودفعه إلى تجرع نصف كوب العصير ، وذلك كتفيه قليلا ، حتى أفاقه . وبمجرد أن مسح ميرزا عبد الزكي عينيه ، تربع جالسا ، وبدأ في قص ما كان قد قصه لرفيقه بالأمس بداية من نشوز زوجته ، حتى فخرها الأجوف بحماية خانلرخان ، والمهلة التي كانت قد منحتة إياها حتى آخر الأسبوع ، وأنها تريد عن طريق حكيمباشي البلاط أن تعد شاهدا على طلاقها . حك الحكيمباشي جبهته بعد أن استمع إلى هذا الكلام وقال :

- من الواضح أن زوجتك " مسنودة " تماما ، أرسلها إلى زوجة ميرزا أسد الله تنصحبها قليلا ، أما عنك أنت نفسك فمن رأيي أن تنهض وتقوم برحلة ، سح في الدنيا قليلا ، يقل همك وانشغالك . والله رحيم ، وقبل أن تصل عقول عباده إلى شيء ، ربما يجود هو نفسه برحمته عليهم .

وعندما وصل الكلام إلى هذا الموضع ، ومن أجل أن يحول ميرزا أسد الله دفة الحديث ، بدأ في قص ما جرى حتى ذلك الوقت بينه وبين رفيقه ، وقصة وفاة الجاج ممرضا ، ونزاع أولاده على الميراث ، وتدخل ميزان الشريعة ، ووقف ثلث التركة ، والرحلة التي تقرر أن يذهبها مغا فيها . وبسماع هذه القصة استغرق الحكيمباشي في التفكير ، ومسح على لحيته البيضاء عدة مرات بيده ، وفي النهاية التفت إلى كاتبينا وقال :

- هكذا يتضح أنكما قد طبختما الأمور جيدا ، إذن فالأمر

هكذا !! يريدون وقف ثلث تركة أبيهم ! حسنا قولنا لي ، ولأر : هل تعرفان أى شيء عن سبب وفاة الحاج ممرضنا ؟

ونظر كل من كاتبينا إلى رفيقه ، وفي النهاية تحدث ميرزا عبد الزكي قائلاً :

- أى علم لنا يا عزيزى ؟ كل ما سمعناه أن الحاج قد مات ، وأن النزاع احتدم بين أولاده على تقسيم التركة ، فمن أين نعلم كيف مات ؟ لابد أنه مات بالأجل الإلهي .

قال الحكيمباشي : ألم تفكرا قط في أن تذهبا وتساءلا أولاده ؟ . وأجاب ميرزا أسد الله هذه المرة :

- لقد ذهبت إلى سرادق العزاء ، لكن أولاده كانوا في درجة من الضيق لا يمكن معها سؤالهم عن شيء ، وفي هذا النوع من المجالس ، لا توجد فرصة مثل هذه الاستفسارات .

قال الحكيمباشي : صدقت ، فهو على كل حال كان قد شاخ ، وكان من المتوقع أن " يطب " عليه زميلنا عزرائيل في هذه الأيام ، لكن لب الموضوع أن الشيخ التعس قد مات بالأجل المعلق ^(١) . لا بالأجل المطلق . لقد دسوا له شيئاً في الطعام . وأنا أعرف أى سم دُس له ، تعلمون أنهم استدعوني إليه ، في نفس وكالته في السوق ، كان وجهه ولونه يصرخان أنه قد مات مسموماً ، وكانت شفتاه متشققتين وكأنه ضرب بنصل .

(١) الأجل المعلق هو الموت بسبب كالحوادث والسم وماإليه . المترجمة

قاطع ميرزا عبد الزكي كلام الحكيمباشي وقال :

- نعم ، هكذا يا عزيزي ، الجميع يقولون أن أولاده دسوا له شيئاً في طعامه .

قال الحكيمباشي : لا ، أيها الشاب ، لا تضع على كاهلك ذنوب الناس بغير داع ، إذا كان أولاده قد دسوا له شيئاً في الطعام ، لما شجر بينهم النزاع على تقسيم التركة ، ثم إن منزل المرء هو أنسب الأماكن من أجل مثل هذه الأفعال . لقد سمم الحاج التعس بشواء السوق . يا لها من أيام عجيبة ، إذن فقد قاموا بهذه الضجة لإخفاء الأثر ، ولكي يخادعوا حتى الله . ومع كل هذا ، قوما برحلتكما ، لكن اعلموا أن أولاده أبرياء ، أبلغاهم سلامي إذا رأيتماهما . والآن يكفي هذا إذ يجب على أن أذهب .. مرضاى في انتظارى .

يا أعزاء القلب ، هكذا انتهت جلسة الحكيمباشي مع كاتبينسا ، ونهضوا معا وخرجوا . كان الوقت لا يزال في بداية الصباح ، وكانت الدكاكين أدنى الممر تفتح أبوابها ، والشحاذون قد انتشروا في الطرقات لتوهم ، وباعة الخضـر يعودون من الميدان^(١) ، وذهب الحكيمباشي إلى عيـدته ، وافترق كاتبانا في مفترق طريق السوق وسويقة العلافين ، وذهب ميرزا عبد الزكي إلى مكتبه ومشاغله ،

(٢) المقصود سبزة ميدان سوق الجملة في المدينة " التي لم يحدد الكاتب إسمها " والواضح أنها طهران (المترجمة)

بينما عرج ميرزا أسد الله نحو سويقة العلافين ، ثم صوب منزل الحاج ممرضنا ليتشمم الأخبار .

وعندما مر من ناصية الحارة ، رأى حارسين جالسين على النجدين اللذين على طرفي الباب وهما يلعبان القمار بالعظام ، قال ميرزا لنفسه : إذن الموضوع ليس بهذه البساطة ، وكان خان دايمي صادقاً فيما رواه . والآن ماذا أفعل ؟ الحارة سد وخالية . فلا سبيل إلى العودة أو الدق على باب آخر . وطرأت فكرة له على الفور ، فتقدم مباشرة إلى الحارسين اللذين كانا قد كفا عن اللعب ، وأخذاً يتفحصانه ، وأمسك ميرزا برمانة باب الحاج وأخذ يدق ، وتحدث أحد الحارسين قائلاً :

– ما الخبر ؟ لديك عمل مع من ؟

قال ميرزا : – أليس هذا هو بيت الحاج ممرضنا ؟

ابتسم الحارس الثاني ابتسامة صفراء وقال :

– يا نبيه ، أنظر إلى هذا .. الحاج انفجر منذ ثمانية أيام ، أخرج مقلمتك من طيات شالك ، واكتب له عريضة إلى الآخرة . وقهقه . اتخذ ميرزا أسد الله مظهر من أسقط في يده وقال :

– عجيب ، الله يرحمه . إذن فما مصير ديون وقود الناس ، ورثته أحياء ، أليس كذلك ؟

عاد نفس الحارس الثاني إلى الكلام مرة أخرى:

– لا ، عليك الآن أن تذهب وتمسك بخناقه على جسر الصراط ،

فكتابة العرائض لن تفيد بعد . وضحك .

لم يضحك الحارس الأول من مزحة رفيقه ، وقال :

- يا أخينا الأكبر ، دعك من التلكؤ ، لا يوجد أحد داخل البيت ،
والحكومة قد شمعت الباب والنوافذ بالشمع الأحمر . سأل ميرزا
متعجبا :

- أترأه كان مدينا للحكومة إلى حد أنهم صادروا كل أمواله ؟!
مصيبة أن يكون قد أفلس !!

قال الحارس الثاني : لا نعلم شيئا عن هذه الأمور ، لا
تسألنا يا أخينا سؤال الملكين ^(١) اتخذ طريقك ، وامض ، فبمجرد أن
انتهت مراسم العزاء في الحاج ، رحل أهل بيته وأولاده عن هذا البيت ،
وسلموه لنا .

قال ميرزا بحزن :- الخلاصة ما مصير ديني ؟ وفي النهاية :
إلى أية داهية ذهب أولاده ؟

ابتسم الحارس الثاني ابتسامة صفراء مرة أخرى وقال :- ألم أقل
لك أن تذهب وتمسك بخنأقه على جسر الصراط ؟ الخطأ خطوك أنك لم
تسمع الكلام ، الإنسان المتعلم مثلك لا يعطي نقودا بلا ضمان لرجل
إمعة مثل الحاج ...

- حسنا ، لا تغتب الموتى .

(١) حرفيا : لا تسألنا عن أصول الدين وهو تعبير في الفارسية عن الإلحاف في
السؤال . المترجمة

قالها الحارس الأول لرفيقه ، ثم استدار إلى ميرزا وأضاف
قائلا :

- لا تكن لجوجا أيها الأخ ، فنحن لا نعلم أى شيء ، لا بد أن أولاده الآن يتشاجرون على تقسيم الميراث ، وأنت أيضا إذا أردت فاصبر ، فمن الجائز أن يتضح الأمر كله بعد أسبوع أو أسبوعين ، وإن لم تكن تريد أن تصبر ، فاكتب عريضة ، واذهب بنفسك إلى الشرطة ، واشك . وثانية... شرفت ، مع السلامة .

وهنا ، هز ميرزا رأسه مودعا الحارسين اللذين انشغلا بلعبهما ثانية ، واستدار وأخذ يمشي وهو يهز رأسه كمن أسقط في أيديهم ويحدث نفسه " لا ، لم يحدث ، ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى مجلس العزاء ، لم يكن هناك أصلا خبر عن هذا الكلام . بعد أسبوع أو أسبوعين ، ستتضح كل الأمور ؟ بأى شكل ؟ يعنى من الذى دس له السم ؟ وبمجرد أن عرج من ناصية الحارة ، تذكر مشهدى رمضان العلاف الذى كان له حانوت قريب ، واتجه نحو حانوته .

كان مشهدى قد فرغ لتوه من تنظيف حانوته ، وكان جالسا القرفصاء متعرضا لشمس الخريف الدافئة وهو مستغرق في التفكير . وتبادلا التحيات والسؤال عن الأحوال ، وجلس ميرزا القرفصاء أيضا بجوار مشهدى واستند على الحائط وقال :

- حسنا يا مشهدى ، ما هو السعر المنتظر للفحم هذا العام ؟ وإن كان في الوقت الراهن أين نحن من الشتاء ، لكن قبل أن يسقط الثلج ويسد الطرق ، ينبغي أن نفكر فى فحم الأولاد .

قال مشهدى رمضان: - عندما جئت في العام قبل الماضي أول
برج القوس ، لم نحاسبك على سعر عال يا ميرزا . رحم الله والدك فله
حق في رقابنا . في أى وقت تحب وإن لم يكن معك ثمنه ، لا مانع .
أكتب فقط كلمتين : مقدار كذا حطب ومقدار كذا فحم ولا عليك بعد ذلك
، سوف أستأجر أنا مكاريا وأرسله إليك ، فحم نظيف مثل الشبة ،
وحطب أعواد من الغابة كأنه الخشب الأبيض ، ينبغي فقط أن توصي
أهل بيتك ليعدوا مكانه حتى لا يتعطل الحمال والمكارى .

قال ميرزا :- أطال الله عمرك يا مشهدى ، ولداى الوحيدان
يسلمان ببركتك من برد الشتاء ، ولست بالجاحد أفضالك ^(١) . لكن
لأر حقيقة : لماذا وضعوا الحرس على باب دار المرحوم الحاج ممرضا
؟ هل حدث - معاذ الله - شيء ؟

تأوه مشهدى وقال :- أى علم لي ؟ وفي من يثق المرء بعد ذلك ؟ لقد
أشاعوا أن أولاده قد دسوا له السم ، لكنى أشهد الله أنهم لم يكونوا من
الذين يرضون بقتل نملة.. وهل كان هو أبا سيئا ؟ لم يكن يبخل على
أولاده بشيء .

قال ميرزا :- كان الحراس يقولون إنه لا يوجد أحد في البيت ،
فماذا حدث لزوجهم وأولاده؟ وأية بلايا صبت على رؤوسهم ؟

قال مشهدى : من المؤكد أن أولاده التعساء قد ذهبوا إلى
القرية . ويقال أيضا أن ميزان الشريعة كان ضالعا في الأمر . ويقال
أن المرحوم كانت له علاقة وثيقة مع هؤلاء الدراويش ، كما يقال إن

(١) حرفيا : لست بالقط الأعمى . (المترجمة)

العلاقة قد ساءت بين الحكومة وبين هؤلاء الدراويش . وأشياء كثيرة
تقال . لكنى لا أفهم شيئاً ، ثم وعلى الفور ، إذا كان كل هذا
صحيحاً ، لماذا في النهاية ختموا بيته بالشمع ؟ لا يوجد هناك من
ينبس ، يا لها من مدينة في فوضى عجيبة !! في مثل هذه المدينة ، لو
كنت مكان الدراويش لادعيت الألوهية ، ومكان إمام الزمان المنتظر
محفوظ .

كان ميرزا أسد الله على سابق علم بالدراويش ، وعندما كان طفلاً
، كان أبوه قد عرفه بموضوعهم ، كما كان هو أيضاً قد ذهب - مثل
كل أهل المدينة - إلى زواياهم ، واستمع إلى حكاياتهم وخطبهم و برغم
أنه لم يكن يؤمن بأعمالهم وأقوالهم ، لكنه لم يكن يشعر نحوهم بعداوة
شديدة ، وكان يؤمن بأن ما لديهم مجرد حانوت ، مثل حانوته تماماً أو
حانوت مشهدى رمضان العلاف أو حانوت ميزان الشريعة أو
حانوت رفيقه ميرزا عبد الزكي كاتب الأدعية ، لكن موضع العجب
أن تنضم إليهم شخصية مثل الحاج ممرضاً ، مع كل ماله
وحيثيته . وتذكر فجأة أن الحاج رحمه الله كان يقوم أيضاً بتربية
الغنم ، وكان يجلب الغنم والأبقار ، ويشترى منه ستون أو سبعون
قصاباً الذبائح ، فكان أن سأل مشهدى رمضان :

- ألا تعلم أن الحاج كان يعقد صفقات الجلود والسقط مع هؤلاء

الدراويش ؟

قال مشهدى رمضان : الله أعلم . كان يقال إنه في الأيام
الأخيرة قد افتتحت مذبغة في إحدى تكايا الدراويش . وكان يقال أنه

كان أيضا شريكهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا ثبت أن علاقة الحكومة معهم قد ساءت ، أظن أن رجال الحكومة هم الذين دسوا السم للحاج رحمة الله عليه ، حقيقة ما رأى خان دايبى ؟

قال ميرزا : أنا قادم الآن من عند خان دايبى ، كان يقول أن أولاده أبرياء . حسنا لم تقل لي في النهاية ، كم يبلغ سعر الفحم ؟ قال مشهدى : وما شأنك بالسعر ؟ إن كان لديك نقود أتركها وامض ، ولا شأن لك بما يتبقى عليك ..

قال ميرزا : لا خبر هناك عن النقود حتى الآن ، لكن من يدري شيئا عن الغد ؟ أرسل لي بالفعل أربعة أحمال حطب جاهز مع ثلاثة أحمال من الفحم الجاهز أيضا ، وأرسل الفاتورة مع الحمالين ، وإن كنت موجودا سأنقدهم ثمنها ، وإلا أرسل إلى خان دايبى ، فالرجل الشيخ يتحمل مغارمنا دائما .

قال مشهدى رمضان : هل تفكر في السفر يا ميرزا ؟ خيرا إن شاء الله .

قال ميرزا : - ربما أمر مرورا عابرا على أملاك الحاج رحمة الله عليه ، وأرى أولاده أيضا ، ربما يتأتى شيء من أيدينا ، فأنا قلق جدا عليهم ، أنت تعلم أنني رفيق طفولة إبنه الأكبر .

وهنا ودع ميرزا مشهدى رمضان ، وعاد صوب عيادة ميرزا خان دايبى ، لكي يخبره بما رأى وسمع . ولم يكن هونفسه من مجموع ما رأى وما سمع يشم ريحا طيبة ، وكان يريد أن يعلم ما هو

رأى خان دايبى . فكان أن مر فى البداية على باب المسجد الجامع وأخبر الجيران بأن لديه اليوم مشاغل وأنه لن يستطيع العمل . ثم ذهب مباشرة إلى الحكيمباشى ، وكان لا يزال عنده عدد من المرضى ، انتظر نصف ساعة حتى أخذ آخر مرضاه وصفته ومضى . وبقي هو وخان دايبى وحدهما . وقص على الحكيمباشى ما كان قد رآه وسمعه ، كما أسر إليه بوجهة نظره ، وطلب من الحكيمباشى رأيه ، فمسح الحكيمباشى على لحيته البيضاء وقال :

- معك الحق يا بنى العزيز ، فى هذه الأيام هناك أناس آخرون غير ممرضات ماتوا بنفس الطريقة ، ثمة رائحة توحى بأن أحداثا سيئة قادمة ، ومن الأفضل لك ألا تكون فى المدينة لمدة أسبوع أو أسبوعين ، فسوابقك مع رئيس الشرطة وميزان الشريعة من الممكن أن تجعلهما يدبران لك مكيدة ^(١) مع أنى لست مستريحا إلى هذا الشاب رفيقك ، وكما يبدو أيضا هناك أمر إذعان فى موضوع المصالحة ووقف أموال الحاج . لكن على كل حال هبىء أمورك ، وانهض فامض مع هذا الميرزا ، ولتكن أيضا مطمئن البال من ناحية أسرتك.

(١) حرفيا : يخيطان لك خفا (المترجمة) .

(٥)

المجلس الرابع

يا أعزاء القلب ، شاءت إرادة الله ، أنه في نفس المدينة والولاية التي كان كاتبانا يعيشان فيها ، كان قد ظهر منذ ثلاثين أو أربعين عاما مضت طائفة من الدراويش لها معتقدات خاصة بها ، كانوا قد جاءوا بكلام جديد ومقولات جديدة ، وقليلًا قليلًا شكلوا طائفة وفتحوا حانوتًا ، وآخر الأمر أي في الزمن الذي كانت تجري فيه حكايتنا ، كانوا قد بدلوا تكاياهم إلى أماكن اعتصام لا يدخلها أحد بدون إذنهم . وكان لغط الناس قد بدأ ، وأخذوا يتحدثون عنهم بكلام كثير ، وهو وإن كان صحيحًا ، إلا أن الولوج فيه يعد من قبيل التزويد بالنسبة لرواة الأخبار ، لكن لما كانت قصة كاتبينا قد ارتبطت شئنا أو أبينا بأعمال الدراويش والأوضاع العامة في ذلك الزمان ، والآن وإلى أن يبدأ كاتبانا السفر ، لنمض لنر في يد من كانت مقاليد الأمور في تلك الأيام ، ومن كان الدراويش ، ولماذا ساءت العلاقة بينهم وبين الحكومة .

يا أحبباء القلب ، كانت رسوم هؤلاء الدراويش ومعتقداتهم على النحو التالي : كانوا يعتبرون النقطة هي مركز عالم الخليقة ، كما كانوا قد حطوا التكاليف الشرعية عن كواهل الناس ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بالرمز والكناية ، ويعتقدون أن الحروف الأبجدية حلا للعقد أكثر من أي طلسم ، وبدلاً من بسم الله كانوا يقولون

"أستعين بنفسي" وبدلاً من "لا إله إلا الله" كانوا يقولون "لا إله إلا المركب المبین"، وكانوا يظنون أنهم قد توصلوا إلى الإسم الأعظم، وكانت كتبهم ودفاترهم المذهبية مليئة بالنقط والحروف المفردة مثل: ف.. ص.. د... وعلى هذا النحو، وكان شعارهم الطبرزين، فإما أن يملك كل منهم واحداً منه، ومن لم يكن لديهم كانوا يشمونهم على ظهور أكف أيديهم، وبالرغم من أن هذه المعتقدات قد تفوح منها رائحة الكفر، إلا أن خلاصة معتقداتهم أنه بدلاً من عبادة الله الموجود في السموات والغنى عن صلاة البشر التافهين وصيامهم، وكل دعاء البشر المخلوقين من تراب وثنائهم عليه في حكم جناح ذبابة بالنسبة لعظمته، فمن الأفضل أن نعبد الإنسان المخلوق من تراب والذي يمثل أمامنا على قدمين، ربما نقرب منه بهذه الطريقة أكثر، ونوفي احتياجاته أكثر قليلاً، وعلى هذا النمط من الحديث الذي وإن لم يؤد إلى الكفر في النهاية، إلا أنه صار تكتة للتفكير وياعثاً على إراقة دماء كثيرة. ومن قضاء الله أن هذا هو ما حدث بعينه في هذه المدينة والولاية بمعنى أن الملات والمشايخ كانوا قد كفروا الدراويش، وأخرجوهم من المساجد، كما أن رجال الحكومة قد أرهقوا أسماعهم، ولما كانوا يرون الناس منشغلين بهم، لم يأبهوا بهذه الإدعاءات.

ومن جهة أخرى، ففي زمن حكايتنا، كانت تلك الحرب الطويلة التي احتدمت بين الشيعة والسنة في الدولة المجاورة، ومذابح السنة التي ارتكبت داخل البلاد قد بلغت بالناس المنتهى، ومع أن الحرب

كانت قد انتهت ، ولم يكن هناك خبر بالفعل عن القتل المستمر ، إلا أن آثار الخراب والدمار كانت لا تزال قائمة ، وكان يلزم وقت طويل حتى تعود الحياة إلى مجاريها الطبيعية ، وفي أى قرية قط لم يكن يوجد بغل قوى حتى ك " نموذج " ، وكانت حوانيت بيع الأسلحة لا تزال رائجة داخل المدن ، وبقدر ما تهوى كان أعداد المشلولين والمعوقين ومن سملت عيونهم قابعين في الحارات على خرقة التسسول ، وكل أربعة أو خمسة سنوات كان القحط يهجم ، أو الوباء يقع بين الناس ، أو طاعون البقر في القرى ، وهذا النوع من البلايا ، وكان في مثل ذلك الزمان أن ازدهرت أمور الدراويش .

وكان مبدأ أمر الدراويش أن بدأوا واحدا واحدا ثم جماعة جماعة في الإقلاع عن التجوال في الصحارى والمجيء إلى المدن ، وذلك لأنه لم يكن ليوجد شيء في القرى ، والقرويون أنفسهم قد عجزوا عن مزاولة حياتهم ، وعلى هذا النحو عندما أخذ عدد الدراويش يزداد في المدن ، من أجل أن يدبروا أقواتهم ، بدأوا في رواية السير ومدح الأئمة ، وقليلًا قليلًا كان الجمهور يتزايد حول حلقاتهم ، فأخذوا يزدادون جرأة ويدقون على الأوتار الحساسة ^(١) عند الناس ، وهكذا جمعوا الناس حولهم قليلًا قليلًا وواصلوا وواصلوا حتى رسخوا ، وألقوا عصيهم في التكايا واستقروا .

يا أعزاء القلب ، كان الموضوع الذى جعل سوق الدراويش يروج أن رئيسهم " ميرزا كوتشك جفردان " ، منذ ثلاثين أو أربعين سنة مضت

(١) حرفيا : يعرجون على صحراء كربلاء (المترجمة)

قبل زمن أحداث قصتنا - أى تماما في نفس الوقت الذى كان فيه كاتبانا يذهبسان إلى الكتاب- كان قد ألقى بنفسه في دن زئبق وهلك ، وكان مريدوه قد أشاعوا أنه غاب وسرعان ما يعود ويملاً الدنيا بالعدل والإنصاف ، وكان كل واحد من الدراويش يشير حتما إلى هذا الموضوع في كل مجلس يروييه ، وصدق الكثيرون هذا الأمر ، وانتظروا ليل نهار .

علاوة على هذا ، كانت للدراويش سوق رائجة أخرى في المدينة ، فقد أشاعوا في المدينة أنه إن بدأت الحرب ثانية ، على كل من يرد اسمه في قوائم المطلوبين للتجنيد ولا يريد أن يذهب إلى الحرب ، أن يأتي ويعتصم في إحدى التكايا ، حتى يذهب الدراويش ويدفعون له " البدلية " ويشبترون روحه من الحكومة ، وكانوا قد رشوا ستين أو سبعين من كبار السن في المدينة ، بحيث كانوا يشهدون في كل مجلس يحضرونه ويقسمون بالقرآن أن ميرزا " كوتشك جفردان " قد دفع قبل غيبته هذه " بدليتهم " واشترى أرواحهم ، وإلا علم الله في أى ميدان حرب كانت تثوى عظامهم الآن تقلبها فأسن قروى ، ومن هذا القبيل كانوا قد ملأوا آذان سكان المدينة قليلا قليلا ، كما جمعوا المتسولين والجوع من كل حي داخل تكاياهم ، وثم رائج وغاد وهيلمسان وأبهة !! .

وشاءت إرادة الله أن يكون زعيم هذه الطائفة في زمن قصتنا رجلا يدعى تراب تركش دوز " ناسج الكنانات " ، كان من أصحاب تلك الرؤوس التي لا تخاف . كان رجلا في الخمسين من العمر

ذا لحية شمطاء يرتدى قباءً أبيض طويلاً ، كما كان رجلاً ضخماً ..
درويشاً محترماً . وكان سبب شهرته أنه في مدة أربعين يوم كان قد
جاء برأس " اشبختر " من ميدان القتال ، وكان قائداً لجيش
الأعداء . وكان هذا الأمر قد حدث منذ عشرة سنوات ، حينما كانت
الحروب بين الشيعة والسنة في بدايتها ^(١) ، في ذلك الوقت كان تراب
تركش دوز قد وفد حديثاً إلى المدينة ، وقبع في التكية ، وبوساطة
الصدر الأعظم اختلى خلوة أربعينية صوفية ، يأكل في اليوم
لوزة واحدة ، وكل يوم كان يرسم صورة " اشبختر " كاملة على جدار
التكية ، ويقطع رقبتة بخط أحمر ، وفي اليوم الحادي والأربعين
وصل رسول البريد الملكي الخاص متعباً مغبراً ، وألقى برأس صاحبنا
متيبسة دامية أمام عرش " قبلة العالم " . وكان هذا سبباً في
أن يجتاح الرعب من الدراويش الناس ، وكفوا عن إلحاق أدنى أذى بهم
، وأخذوا يتجمعون حولهم يوماً بعد يوم ويرسلون إليهم النذور
والصدقات . حقيقة أنه بداية من هذا استولى الخوف على قبلة
العالم ، ونفى الصدر الأعظم خارج البلاد ، لكنه لم يكن يتعرض
للدراويش أدنى تعرض ، لكن إسم تراب تركش دوز كان قد جرى على
الألسنة ولم يعد حتى الفيل يستطيع أن يقف أمام الدراويش . كان تراب
تركش دوز قد أمر بأن يلقي درس ديني كل ليلة جمعة في سبع تكايا في
المدينة كانت مراكز تجمع الدراويش ، ومن بعده كان الطعام يقدم ، ومن

(١) اشبختر هو النطق العامي الفارسي لإسم قائد الجيوش الروسية في الحرب
الروسية الإيرانية التي حدثت في أوائل القرن التاسع عشر ، وقد استغل الكاتب
الإسم هنا والزمن غير الزمن والحرب غير الحرب (المترجمة)

ثم كانوا يجمعون في كل ليلة جمعة عددا جديدا حولهم ، وعلاوة على الدراويش أنفسهم ، فإن شحاذاى المدينة ، وكل فار من الحكومة ، وكل مجرم ، وكل من وقع عليه ظلم ولا يستطيع أن يأخذ حقه ، أو كل من تشاجر مع جدته ، أو ضاق ذرعا بزوجات المتعة اللائي تحته والزوجات الدائمات ، أو ضاق من ملاحقة دائنييه ، كلهم جاءوا واعتصموا داخل التكايا وكل منهم جاء بفراشه وغطائه . ولما ازداد جمهور الدراويش بشكل سيء ، ومن الممكن للبطالة أن تقضي على صبرهم ، قام تراب تركش دوز منذ عامين بجعل كل تكية مركزا لحرفة من الحرف ، وجر الدراويش جميعا إلى العمل ، فثمة تكية للسراجين ، وتكية لخراطي السلاح الأبيض ، وأخرى للخبازين ، ورابعة للسروجية .. إلى آخره ، وبالرغم من أنه هو نفسه كان في شبابه وقبل أن يكون خليفة لميرزا كوتشك جفردان كان يقوم بحياكة الكنانات - كما يدل إسمه - إلا أنه الآن انخرط في سلك خراطي الأسلحة البيضاء ، وكان قد قسم العمل داخل كل تكية ، أما أولئك الذين لم يكونوا يتقنون حرفة ما ، فكانت جماعة منهم تقوم بالطبخ وتشرف على احتفالات الدراويش ، وجماعة أخرى تقوم بالكنس والرش وأمور التنظيف ، وجماعة تقوم بأعمال السوق وتشرف على الصفقات التي تعقد مع التجار موضع الثقة من الدراويش ويشترون البضائع التي يصنعها الدراويش ، أما أولئك الذين كانوا أهل صنعة وحرفة ، فكان كل منهم مشغولا بصنعتة وحرفته داخل إحدى التكايا ، وكانوا يرسلون كل ما يقومون بصنعه إلى السوق ، ولما كانوا يبيعون بأسعار أرخص من الأسعار السائدة ،

فقد كان لديهم دائماً زبائن يشترون . وكانت النسوة ممنوعات تماماً من دخول التكايا ، لأن معاشرة النساء كانت محرمة فى شريعة الدراويش ، وكان الدراويش كلهم عزابا ، ثم ووزر مانقوله فى رقاب رواة الأخبار – الذين يقولون أن كثيرا من الدراويش كانوا مدمنين للحشيش والأفيون ، أما عن اللواط فقد كان بدوره سائدا فى هذه الولاية .

ياأحباء القلب هذه الأمور استمرت واستمرت حتى نفس تلك الأيام التى تبدأ فيها قصتنا ، وفى يوم من الأيام أخبر أحد عيون الحكومة السريين " خواجه نور الدين " صاحب الديوان الذى كان رئيسا للوزراء فى ذلك الوقت وخلفا للصدر الأعظم السابق الذى نفى ، أن تراب تركش دوز منهمك فى صب المدافع ، واحتاج الرعب كل رجال الدولة دفعة واحدة ، ذلك أن الأسلحة النارية كانت حديثة الإستخدام فى البلاد الغربية ، ولم يكن قد وصل بعد إلى هذه الأنحاء ، كما أن الدولة كانت تهزم فى حروب الشيعة والسنة مع الدولة المجاورة لأنها لم تكن قد استطاعت إلى ذلك الوقت أن تصنع المدافع ، بل كان واحد من كل عشرة من جنودها ليس أكثر يحمل بندقية .

على كل حال ، إلى هذا الحد لم يكن هناك فيما يفعل الدراويش عيب يذكر وكان الناس متحمسين وقد ظنوا أن أمرا ما يمكن أن يتأتى من يد أولئك الدراويش ، وكانت الحكومة حينما تريد ، كانت تستطيع بسهولة أن تهلك أحدهم ، فتعطى السم لمن يدسه فى طعامه ، أو تستصدر حكما بتفكيره من ديوان الشرع ، أو تضع الشمع المشتعل فى جراح فى جسده ، أو تشمل عينيه . لكن الآن ثمة روائح كريهة تفوح . وكان أن عم

القلق (١) العظماء والأعيان والوزراء ، ومن ثم لم يقم واحد أو إثنان بالتقصي ، بل أرسلوا الجواسيس وكتبة التقارير والعيون الواحد تلو الآخر متخفين في ثياب الدراويش ، وذهبوا إلى تكاياهم وأماكن تجمعهم ، ومن أجل ألا يبقى مجال للشك ، طلب خواجه نور الدين من خانلرخان أن يذهب هو نفسه وقد بدل ملابسه ويتشمم الأخبار وقام خانلرخان الذي كان يشتهي منصب ملك الشعراء بشكل سيئ بالمهمة ، وأخبره أن الأمر صحيح ، وأن تراب تركش دوز يشتري الأهوان النحاسية من المنازل المجاورة بسعر باهظ جدا ، وأنه أقام داخل تكية خراطي السلاح الأبيض الأكوار والأدوات اللازمة ، وأنهم صنعوا حتى الآن ثلاثة مدافع تماما مثل مدافع أهل السنة .

وما إن بلغ الأمر هذا الحد ، فهم خواجه نور الدين صاحب الديوان أية طموحات تدور في رأس تراب تركش دوز ، إذ يمكن بهذه المدافع الثلاثة أن يحدث فجوة في اتساع بوابة في صدر جدار القلعة الحكومية خلال يوم واحد ، فكان أن أخبر الوزراء ، وبعد يومين أو ثلاثة من التشاور ، تقرر أن يبلغوا " قبله العالم " بالخبر ، ولهذا استدعوا خانلرخان لينظم قصيدة يشير فيها إلى هذه الأمور ، فإذا أرفق قبله العالم السمع ، وطلب أن يفهم معنى هذه الإشارات ، يتقدم عندئذ خواجه نور الدين ، ويعرض على جلالته أصل الموضوع . ونفذوا ما اتفقوا عليه ، لكن قبله العالم لم ينتبه قط إلى إشارات خانلرخان ، وظن أن غرضه هو مجرد الحصول على رتبة ملك الشعراء ، ومن نفاذ

(١) حرفيا : وقعت البراغيث في سراويل (المترجمة)

صبره ، أمر بأن يصلوه بخمسين سكة ذهبية ، وصرف الجميع . ولم يكن لدى واحد من الوزراء الجرأة ، أن يذهب إلى " الحرملك " ويبلغ السلطان الخبر . ووقعوا في حيص بيص ، وأخذوا يتبادلون الرأي ثانية لمدة يومين أو ثلاثة . وفي النهاية تفتقت عقولهم أن يتوسلوا بمحظية الملك عن طريق رئيس أغوات الحريم ، وفعلوا ، لكن محظية قبله العالم رفضت أن تفسد ليلتها التي تأتي بعد انتظار ثلاث وثلاثين ليلة وتبلغ الخبر إلى الملك في أول الليل وتهدر متعتها وسرورها ، وقررت فيما بينها وبين نفسها أن تبلغه الخبر في الصباح ، لكن قبله العالم كان نائما في الصباح ويحتاج الأمر إلى قلب أسد ليذهب أحد في الصباح ويوقظه ، ومضى شهر على هذا الحال ، ولم يتجرأ أحد من الوزراء على أن ينبس بحرف أمام قبله العالم ، وما كان هناك من شخص يتطوع لإنجاز هذا العمل ، فحتى الوزراء أنفسهم لا يجروا أحدهم على شربة ماء دون أمر من قبله العالم ، ولم يكن هناك أى أمر يتأتى من أيديهم ، وفي هذه الفترة ، استطاع تراب تركش دوز أن يصب ثلاثة مدافع أخرى .

من ناحية أخرى ، عندما رأى خواجه نور الدين أن السكوت لا يفيد ، تهور ، وصمم على وضع خطة بمفرده وترتيب الأمر ، وكان أن أرسل في استدعاء خاتلرخان مقرب الديوان الذي تعرفنا عليه من قبل ، ورئيس منجمي البلاط الذي كان قد حل حديثا محل أبيه ، ولم تكن الفرصة قد أتت له بعد لتقديم الخدمات واستعراض الذات ، وأفهمهما إلى أى حد وصلت الأمور ، وفسر لهما أنه طبقا لما تخبر به

التقارير الحكومية القادمة من الأقاليم فإن هذه الأحوال قد اتخذت طريقها بشكل أو بآخر إلى المدن الأخرى ، وإن تأخروا في الحركة ، سوف يتعلمون في تلك الأماكن صب المدافع ، وتفلت الأمور تماما ، وأنذاك لا قبلة العالم سوف يبقى ولا ملك الشعراء ولا رئيس منجمي البلاط ، وبعد أن شرح لهما خطته أخذ وعدا من رئيس منجمي البلاط أنه سوف يقيم في المرصد لمدة ثلاثة أيام ، يرصد ، ويضع خطة للأمر ، وأن يقوم خانرخان بنظم قصيدته بحيث لا تكون الإشارات والكنائيات فيها بعيدة عن الفهم لكي ينتبه قبلة العالم . وبعد أن انتهت الجلسة أرسل إلى حكيمباشي البلاط ووضع أمامه قائمة بأسماء سبعة أشخاص ينبغي أن ينتهي منهم في خلال أسبوع وكان هؤلاء السبعة من التجار الذين كانوا يتعاملون مع الدراويش ويدعمونهم ماليا ، وكان من بينهم الحاج ممرضا الذي تقرر أن يسافر كاتبانا لحصر أملاكه . وأقول لكم أيضا أنه أمر أيضا ميزان الشريعة كم يصادر من أموالهم ، وكم يدخل في الأوقاف ، كما أفهم رئيس شرطة المدينة أن يأخذ عددا من بغال الناس وخيولهم للسخرة ، والخلصة أنه قام وحده بترتيب الأمور كلها . وفيما يتصل بالطرف المقابل أمر كل بصاصي الحكومة وجواسيسها أن يذهبوا ويشيعوا داخل التكايا بأن معجزة على وشك الحدوث ، وأن ميرزا كوتشك جفردان موشك على الظهور ليملا الدنيا كلها بالعدل والإنصاف ، وفي خلال هذا كان يرد الجواسيس الذين يصلون من الأقاليم ويحملون الأخبار السيئة بأوامر جديدة ولما يجف عرق جياهم بعد ،

والخلاصة أن وقع سنايك خيل البريد لم يكن يصمت في تلك الأيام لحظة واحدة ، وفي داخل ممرات القلعة الحكومية كان ثمة حركة لا توصف .

يا أحبباء القلب ، بمجرد أن أعدت كل المقدمات ، وتماما في نفس اليوم الذى كان قد تقرر فيه سفر كاتبينا ، كان الاستقبال العام الكبير في قصر السلطنة ، وتجمع كل الأعيان والأشراف ، ولم يكن في المجلس موضع لإبرة ، وفي البداية تقدم خانلرخان مقرب الديوان الذى كان ضخما سميئا وهو يلهث ، فأخرج قرطاس قصيدته الجديدة وقرأها بفصاحة شديدة ، وأشار خلالها صراحة مرتين أو ثلاثة إلى تطاول الدراويش وتعديهم ، وحشر كلمة المدفع في القصيدة ، فقال له كل الحضور أحسنت ، ثم طلب رئيس المنجمين الإذن ، وبتنفس الأسلوب المتقعر الذى تعرفونه أفضل مني ، بدأ في التمهيد ، ثم وصل في النهاية إلى أصل الموضوع وقال :

" جعلت فدى لقراب قدمك المبارك ، إن أوضاع النجوم السماوية والكواكب العلوية ، وكل منها العبد المطيع وحامل الركاب على الكتف لحضرة ظل الله ، بالرغم من أنها تدل بالتمام ، وتستدل بما لا يستدعي الكلام على صحة الذات الهمايونية القرينة بالشرف وعافيتها ، لكن لأن الحفاظ على عتبة الكبرياء هذه فريضة واجبة على كل واحد من العبيد ، فإن هذا العبد المحقر الذى هو تراب للقدم وغباره ، من أرصاد الكواكب والسيارات على توالي الليل والنهار ، قد استنبط أنه في الأيام

والليالي القادمة بداية من سابع الشهر ولدة ثلاثة أيام ، أن تربيع
النحسين واقع في منزل الطالع ، والنجم الطالع بالسعد في حضيض
الزوال والوبال ، وفي تلك الأيام الثلاثة الذي يستمر فيها التداوم
المشتوم لقران النحسين ، فإن الذات عادلة الصفات وشاملة البركات
لحاضرة ظل الله ، تكون - والعياذ بالله - هدفا للحقد والجحود من
الدهر الغدار والفلك المعوج الدوار .

وبينما كان على هذا النسق يعطي الكلام حقه إذ نفذ صبر
قبلة العالم ، وصاح :

- ابن المجحوم هذا .. هل تسبب فكاه ؟ يا رئيس الوزراء ، ماذا
لو سلمناه ليلحموا فكيسه بالفضة المذابة ؟

وعندما رأى خواجه نور الدين رئيس الوزراء أن الأمر سيفسد ،
أسرع وتقدم وأدى فروض الطاعة كما ينبغي وقال :-

- سيدي ، هب فيهقة لسان جناب رئيس المنجمين لأقل
عبادك ، هذه هي عادة العلماء فتفضل بالعفو ، لكن أظن انه نظرا
لغيرته على الذات الهمايونية لديه معلومات تصادف أنه طرحها على
من قبل ، فإذا سمحتم ، أظن أنه رأى في أوضاع الكواكب خطرا على
مقام السلطنة الشامخ ، كما أشار خانلرخان في قصيدته إلى هذه
النقطة ، ولكنكم لم تلتفتوا إليها .

تحرك " قبلة العالم " فوق كرسي العرش ، وبصق بصقة في
المبصرة الذهبية التي كانت في يد كبير الحجاب ، ثم قال :

- أنا لم أفهم شيئاً من كلام هذا الشاب الثرثار ، فإنه يتحدث بلغة أبيه ، من الأفضل أن تتحدث أنت نفسك يا رئيس الوزراء .

وعظم رئيس الوزراء كما ينبغي ، وتقدم خطوة وقال :

- لا بد أن الخاطر الملكي الخطير ، يتذكر أنه لم يعد على فصل المشتى الكثير ، والعاصمة الهمايونية بالرغم من أنها تزدري بالجنة المضمخة بالعنبر ، إلا أن فيها برودة خريفية سيئة ، وعبيد البلاط محتاجون إلى تعريض عظامهم للشمس ، والصالح للملك والشعب والأمة ، أن نقدم هذا العام موعد رحلة الشتاء ، وكما رأى المنجمون من رصد الكواكب ليس من الصالح أن تبقى الذات المقدسة الهمايونية من سابع الشهر وحتى عاشره على أريكة السلطنة .

وفي حين لم يكن يتصاعد نفس من المجلس بل ولا تطير ذبابة ، تحرك قبلة العالم ثانية من مكانه ، وسعل سعلة أخرى ثم قال :

- لأر يا رئيس الوزراء ، مصيبة أن يكون في الأمر حيلة ! حذار وإلا أسلم جلودكم لتحشى بالقش .. ها .. حدثني لأر ، ماذا يصل إلى عقلك المختل .

نظر رئيس الوزراء إلى كبير المنجمين وإلى خانلر خان ثم قال :

- لقد قلب خدم البلاط من قبل كل الأفكار ، وتوصلوا إلى نتيجة هي أنه في هذه الأيام الثلاثة ، يجب أن يظل الوجود المبارك ذو الجود لقبلة العالم بعيداً عن كرسي السلطنة ، حتى إذا نزل - لا قدر الله - بلاء ، كان ثم آخر فداءً للذات الهمايونية .

هم قبلة العالم بالقيام من فوق كرسي السلطنة وصاح وقد جرى
الدم في وجهه :

- هه ، يا أولاد القحائب !! دبرتم حيلة جديدة ، أتريدون الخلاص
مني بهذه البسطة ؟ يا رئيس السيفين !!

مثل رئيس الجلادين وهو يرتدى ثيابا حمراء من قمة رأسه حتى
أخمص قدميه ، وفي يده سيف عريض لامع كبرق البلاء ، وخر على
الأرض أمام كرسي قبلة العالم ، وظل منتظرا أوامره التالية بلا حراك
كالتمثال تماما . لكن رئيس الوزراء لم يكن من أشجار الصفصاف التي
تهزها هذه الرياح ، فتقدم خطوة أخرى وقال :

- سيدي ، فلتسمح لتابعك الذي يفديك بروحه ، وإن كان في
الأمر خلاف ، فهذه هي رقبة عبدك . واستشهد ببيت شعر يناسب الحال
أشار قبلة العالم إلى رئيس الجلادين الذي نهض ومضى ، واتخذ لنفسه
مكانا قريبا ، ثم أشار إلى رئيس الوزراء أن يقول ما لديه ، فقال :

- يدرك خاطركم المبارك أن أتباع البلاط لهم فترة طويلة وقد
حرموا من المرح ، وذلك منذ أن ودع الحاج ميرزا قمقم الدار الفانيّة ،
لم تتيسر وسيلة لبهجة خاطر الهمايوني ، فإذا سمحتم فإن عبيدك
المولودين في دارك قد رتبوا فعلا الأمور بحيث لا تؤثر ضربات القدر ،
وأیضا تعد وسيلة جديدة من أجل إبهاج خاطركم المبارك .

مسح قبلة العالم على لحيته بيده وقال :

- حسنا ، حسنا . قل لأر يا رئيس الوزراء ، يبدو أن .

الأمور ستحلسو .

تجراً رئيس الوزراء وتقدم خطبوة أخرى وأخذ يتابع كلامه على هذا النحو :

- ينبغي أن أعرض على سديكم الملكية المباركة أن طائفة الدراويش هذه مع كل ما في رقابهم من حق النعمة لقبلة العالم ، قد صاروا بالتدريج سببا في متاعب الممالك المحروسية . وعلاوة على موظفي البلاط الذين يراقبون أعمالهم وأقوالهم ، فإن شخصية بارزة مثل خانلرخان بنفسه قد ذهب وشاهد عن كثب ، أن بلغوا من الجرأة أن أخذوا ينمون الأوهام في رؤوسهم ، ويصبون المدافع .

وعندما سمع قبلة العالم العبارة الأخيرة ، قام نصف قومه ، وقال وقد احمر غضبا :

- عجيب !! أيصنعون المدافع ؟ كيف ؟ لكن أين وزير الدواب ابن المجحوم هذا حتى يذهب ويتعلم منهم ؟ حتى لا نبقي عاجزين هكذا في اليوم الأسود ، وفي الأصل يا أولاد المجحومين يا حمقى ، لماذا لم تخبروني حتى الآن ؟ أليس معلوما ما هو عملي بالضبط في هذه المملكة ؟

تظاهر رئيس الوزراء بالحزن ، وقال :

- جعلت فدى لقراب قدمك المبارك ، إن الأتباع المضحين بأرواحهم لا يريدون تعكير صفو خاطرهم المبارك ، لكن الفرصة لم تفت الآن بعد ، فلتأمروا ماذا نفعل بهذه الطائفة ؟ هل نذهب ونشتري

مدافعهم ؟ وهل تتصورون أن الأمر بهذه البساطة ؟

ضرب قبلة العالم الوسادة المكسوة بالكشمير الأصفهاني
بقبضته وقال :

- وما علمي ؟ وأنت أيها الأحمق المخرف تخبرني الآن فحسب بهذا
الموضوع ، وتساءل أيضا عن علاجه ؟ إذن فمن أجل ماذا تبيحون
لأنفسكم كل هذا المال والجساه ؟

ثم استغرق في التفكير ، وقال وكأنه يحدث نفسه :

- إذن فأين المجحوم " تركش دوز " قد صدق نفسه ؟! الجحود
!! لقد دفعت أنا بنفسي جائزة مقدارها خمس آلاف سكة ذهبية لإثنين
من هؤلاء المعدمين فأخذا ذلك الكلب الملعون على غرة وأتيا برأسه
. والآن جعلها ابن المجحوم هذا في حسابه . ثم التفت إلى رئيس
الوزراء وصاح :

- والآن ، قل لي يا عديم الشعور ، أي غائط تفكر الآن في أكله ؟!

قال رئيس الوزراء : - تعتقد هذه الطائفة الضالة أن معجزة
وشبكة الحدوث ، وهم يجهزون أنفسهم لهذه المعجزة ، وصيهم للمدافع
يدل على أن هذه المعجزة هي على الأقل الوصول إلى الحكم ، وفكر
أتباع البلاط في أن يصيبوا هدفين بسهم واحد ، فيساعدون في ظهور
هذه المعجزة ، كما يدفعون بلاء القدر في تلك الأيام الثلاثة ، وذلك بأن
تترك الميدان خاليا لهؤلاء السادة ، وننقل العتبة المباركة إلى المشتى ،
ولأن المشتى الهمايوني في الولاية الجنوبية وقريب من حدود الممالك

المحروسة ، وحركة البريد والسفراء من هناك أسهل ، ربما تصبح أبهة
قرب جوارك المبارك سببا في الصلح وإقرار السلام مع الدولة المجاورة
الشقيقة ووسيلة تصفية الخلافات بين الطرفين . وختم كلامه ببيت شعر
مناسب آخر .

ووصلت غممة " أحسنت " و " بارك الله " إلى مسامع قبلة العالم ،
فقال راضيا وسعيدا :

- أحسنت يا رئيس الوزراء ، حقيقة أن خبزنا وملحنا كانا حلالا ،
ليست خطة سيئة ، كنت قد سمعت أنهم سببوا المتاعب لبعض تدابير
الحكومة ، لكني لم أكن أعلم أن شأنهم قد ارتفع إلى هذا الحد بحيث
يصنعوا المدافع تحت بصرنا وسمعنا ، الخونة !! حسنا ، أية خطة
أخرى دبرت لهم يا ملعون ؟

قال رئيس الوزراء وهو سعيد فرح :

- لتدم الدولة الهمايونية ، سبعة من التجار الذين كانوا
يتعاملون معهم شرفهم حكيمباشي البلاط منذ أسبوع بزيارة عزرائيل ،
كما صادرنّا أموالهم بفتوى من ميزان الشريعة المعروف للحضرة ،
ولدينا ترتيب آخر بحيث يحفر هؤلاء الأفاضل قبورهم بأيديهم في
غياب ظلكم المبارك ، وبعد أن تنقش الأخطار الأرضية والسماوية
، ونعود من المشتى في الركاب الهمايوني ، نقدم أيضا سبعة من
زعماء هؤلاء الأفاضل فداءً لمقدمكم المبارك ، وسبعين آخرون نضع
الشمع المشتعل في أجسادهم ، وبقيتهم إلى السجن والنفي ، وبهذا

أظن أن الفتنة سوف تخمد .

ونادى قبلة العالم رئيس الحجاب وهو فرح ضاحك بين صيحات
استحسان رجال الملكة وأعيانها ، وأمره بأن يحضر ألفي سكة
ذهبية في كيسين منفصلين ، ألقى أحدهما في حجر رئيس الوزراء ، أما
الثاني فقد عده بيده المباركة ، وقسمه ، وأعطى نصفه إلى رئيس
المنجمين والنصف الآخر لخانلر خان مقرب الديوان ، وانتهى المجلس .

(٧)

المجلس السادس

يا أحبباء القلب ، الآن اسمعوا أخبار تلك الناحية ، أى ما جرى في المدينة . بعد أسبوع من الاستقبال العام في القصر الملكي ، وذات يوم ، انتشرت عند الفجر شائعة في المدينة أن قبلة العالم وكل الوزراء والعسكر والحشم ونسوة الحرم قد رحلوا بليل ، وأن الدراويش سرعان ما يهيمنون على الأمور ، فيقومون بنهب المدينة وإعمال السيف في كل الناس ، وتعبئة دماء الأطفال في زجاجات ، وأخذ آحاد الناس الذين كانوا عائدين من الحمام أو المسجد ، أو الفضوليين الذين كانوا قد خرجوا في نفس ذلك الفجر في التجول وراء خبر جديد ، وعلى أبواب الخالات والعمات والأصدقاء والمعارف ، عندما كانوا يلتقون معا ، كانوا ينقلون ظنونهم وتخميناتهم كأخبار موثوق بها ، والأخبار كأشياء رأوها بأعينهم ، وكانت كل جماعة تعبر عن الخوف والرغبة التي كانت تحس بها بالنسبة للمستقبل أو الأمنيات التي كانوا يتمنونها في قلوبهم في صورة أخبار حسنة أو سيئة ، مقبولة أو غير مقبولة ، ويقومون بتوصيلها إلى آذان الآخرين ، واولئك الذين كانت منازلهم بالقرب من بوابات المدينة ، كانوا قد رأوا بأعينهم التي في رؤوسهم العربية التي كانت قد خرجت مسرعة من البوابة قبل صياح الديك مع الحجاب والحرس ، ثم إن هناك أيضا الحوذية الذين كانوا يجلبسون في

الصباح الباكر الخضر والفواكه الخريفية ، وكانوا قد رأوا عسكر قبلة العالم من خلف الجبل المجاور للمدينة ، وهو يسوق بأقصى سرعة .

وقليلا قليلا ، عندما ارتفع النهار ، وخرج الناس من منازلهم فرادى بخوف شديد ووجل وحذر ، رأوا أن أبواب القلعة الحكومية مغلقة ، ولا يوجد داخل المدينة دركي واحد أو حارس حتى كنموذج ، كما أن الأسواق مغلقة . لكن حول تكايا الدراويش ومراكز تجمعهم ، كان هناك رواح وغدو لا يوصف ، ثم إنهم عندما رأوا أنه لا خبر هناك عن القتل المستمر ، تجرأ عدد أكبر وخرجوا من منازلهم ، وأخذت جماعات العاطلين الحذرة التي تتجه نحو تكايا الدراويش هاتفة " حيدر ، حيدر " و " شاق الصفوف ، شاق الصفوف " تزداد في الحارات لحظة بعد أخرى ، وزادت وزادت إلى أن ارتفعت صيحة " الله .. الله " من كل المدينة إلى عنان السماء ، وانهمر الناس خلف الدراويش .. وما إن أشرقت الشمس ، حتى تقدم الدراويش والناس من خلفهم ، فاستولوا على كل مراكز الحرس ، لكن لم يباغت في أى مركز للحرس أكثر من ثلاثة أو أربعة من الحرس الطاعنين في السن الموشكين على الموت ، كما أنهم لم يكونوا قد أذوا أحدا قط ، وإن كانوا قد فعلوا ، فلم يعد أحد يتذكر حتى يقتص منهم الآن ، فكان أن صرفوا كل الحرس دفعة واحدة ، وداخل كل مركز للحرس عسكرت جماعة من الدراويش ،

وخلال نفس المعمة قبض على ثلاثة من العملاء السريين للحكومة اتهموا - بالحق أو بالباطل - بأنهم هم الذين اغتالوا أولئك التجار السبعة ، فشهروا بهم ، وطافوا بهم وهم راكبين بوضع مقلوب على ظهور حمير مصبوغة بالحناء حول الأزقة والأسواق بالمزامير والدقوف والنقارات .

وما أن انتهى أمر مراكز الحرس حتى تبع الناس الدراويش مرة أخرى ، وتقاطروا داخل المدينة لنهب محال بيع الأسلحة ، فحطموا أبواب المحلات ونهبوا كل ما وصل إلى أيديهم من بنادق وسهام وأقواس وهراوات قتال ودروع ، ونهبوا ، وعند كل واحدة من بوابات المدينة السبع ، كلف مجموعة من الدراويش الضخام بأن يكون دخول المدينة والخروج منها تحت إشرافهم ، وأن يدقق في هذا الأمر تماما . وكانت الشمس قد ارتفعت لتوها ، عندما اشتعلت النار في سوق العلافين دون أن يدرى أحد السبب ، وكان أول من احترقت أملاكه صاحبنا مشهدي رمضان العلاف الذي أهرع برأس وثياب محترقة إلى تكية خراطي السلاح ، واعتصم ثم سرت شائعة بأن جواسيس الحكومة قد أشعلوا النار في السوق ، لأنهم كانوا يريدون أن يحدثوا مجاعة في المدينة انتقاما من الناس ، ولم تكن النار قد اندلعت بعد في سوق العلافين ، عندما هوجمت المخازن الحكومية في الطرف الآخر من المدينة ، ونهب

كل ما فيها من أرز وزيت وقمح وشعير ، وكل ما وصلت إليه أيدي
الناس .

ومن هذا الوقت فصاعدا ، بدأ الخوف من القحط والجوع وانعدام
الأمن ، وتقاطر كل الناس دفعة واحدة خارج بيوتهم بحثا عن خبر أو
مشاركة في مغامرة ، أو تدبيرا لمثونة. وفي نفس هذا الوقت كان أن
تقاطرت جماعة أخرى فحطمت باب السجن الحكومي ، وأخرجت
المحكوم عليهم بالمؤبد من داخل الزنازين ، وأفرجت عنهم . ولم يكن
الظهر قد حان بعد عندما انتشر المنادون في المدينة ، ودعوا الناس
من قبل " تراب تركش دوز " إلى الهدوء ، وأعلنوا رسميا أن قبلة
العالم قد غادر مع حرسه وحشمه بحجة المشتى ، والمدينة تحت
سيطرة الدراويش ، ومن هذا الوقت فصاعدا ، كل إنسان حر في
دينه وعقيدته ، وليس لأحد قط أن يتعدى على آخر ، وكل من يرتكب
سرقة أو فسقا أو يكسر باب منزل أحد أو حانوته تقطع رقبتة
على الفور ، وسواء صديقهم وعدوهم آمن على روحه ، بشرط أن كل من
لديه في منزله بندقيّة أو هاون نحاسي ، عليه حتى غروب ذلك اليوم
أن يحوله إلى تكية خراطي السلاح ويأخذ ثمنه ، وإلا فللدراويش الحق
من صبيحة الغد إذا وجدوا هذين الصنفين داخل أى منزل ، أن يقوموا
بمصادرتها وأخذ صاحبها إلى المعتقل ، وعند الظهر تماما انطلقت
من أسفل بوابات المدينة السبع أصوات مدفعيّة الدراويش ،
وأبلغت خبر الاستيلاء على المدينة إلى مسامع أهل القرى المجاورة ، ثم

دقت النقارات لمدة ساعة كاملة من فوق كل بوابة من البوابات السبعة .

ومن الظهر فصاعدا ، صارت أوضاع المدينة أكثر هدوءا ، وما إن بسطت الموائد ، حتى عاد الناس من حيث كانوا ، وانهمكوا في الطعام ، ثم غلبهم النعاس ، كما خمدت النار في سوق العلافين ، وظهر في الأزقة الدراويش الذين يحيطون صدورهم بأحزمة طلاقات الرصاص والبنادق فوق أكتافهم . وبداية مما بعد الظهر، سار أصحاب الحوانيت الذين كانوا قد اطمأنوا بالا بالتدريج فرادى ، وذهبوا ليفتحوا حوانيتهم ، وأخذ المنادون وكل منهم برفقة درويشين متمنطقين بأحزمة الرصاص يطوفون على هذا النسق في المدينة ، وهم يعدون بالأمن والأمان حتى يطمئن بال أهالى أكثر الحارات الداخلية بعدا . وتماما كالمريض الذى يخرج المرض من جسده ، في البداية يتصبب عرقا بشكل واضح ، ثم يفقد الوعي ويروح في النوم .. كانت المدينة مثل ذلك المريض تماما ، بعد حمى شديدة تسببت عرقا في البداية ، ثم همدت لتنهض من مكانها في الغد بسلامة الله .

يا أحبباء القلب ، عصر نفس ذلك اليوم ، اطمأن بال أكثر أهل المدينة جبنا ، وخرج كل من كانوا قد اختفوا داخل الصنادير ، ووصل رجل يبدو تابعا خائفا ومرتعدا إلى باب تكية خراطي السلاح ، وأخذ يسأل كل من يقابله عن رئيس الدراويش ، ولكن خلال تلك الضجة حول التكية لم يكن أحد ليأبسه به ، حتى حدث في النهاية أن شك

أحد الدراويش في أمره ، من حركاته البطيئة وما كان يقوم به من همس في أذن هذا وذاك ، فتقدم ليرى ماذا وراءه ، وأى شيء يريد ، وعندما فهم من يقصد سألوه :

- إن لم تكن تقصد عملا ليس من ورائه إلا فضيحتك^(١) ، قل لي ، لأر ماذا وراءك.

أجاب صاحبنا قائلاً : نعم يا أخي الأكبر ، الحق معك ، الباب لا يكون دائماً بمصرع واحد .

قال الدراويش :- لا تتفلسف ، قلت لك ماذا تريد من الشخص الأوحده ؟
قال صاحبنا : لا شأن لي بالشخص الأوحده ، لدى عمل مع زعيمكم .
قال الدراويش : هو نفسه رئيسنا ، طلعت روحك ، انطق لأر ماذا تريد .

قال صاحبنا : يا له من بذيء اللسان .. أحمل إليه رسالة مهمة
قال الدراويش : مصيبة أن تكون قادماً من لدن قبلة العالم ؟
قال صاحبنا : لا يا أخي ، مالنا وقبلة العالم ؟ لقد جئت من قبل ميزان الشريعة وخانلرخان ..

قال الدراويش : أهـاه ، طلعت روحك ، إذن فامش ، وتعال خلفي .
وذهبوا معا داخل التكية ، وفي ركن منها كان هناك تل من الأهوان النحاسية ، وفي ركن آخر كومة كبيرة من الحطب ، وهزيم كور

(١) حرفياً : تحدث في سروالك . المترجمة .

حداد كان يصم الأذان من خلف أحد الجدران، ومن المدخنة كان دخان يتصاعد إلى عنان السماء بشكل لا يوصف ، وكان كل واحد من الدراويش مشغولا بعمل ما ، فكانت جماعة تحمل الحطب إلى السرداب ، ومجموعة أخرى تنقل الماء ، ومجموعة أخرى تراجع الأهوان وتصنفها كلا بحسب نوع نحاسه . وصعد الدراويش المرشد وخلفه حامل الرسالة السلام ، ودلفا إلى إحدى الحجرات في الدور العلوى ، وكانت مفروشة بالحصير ، وفي أركانها ثلاثة أو أربعة من الأنطاع الجلدية ، وجلس ثلاثة من الدراويش المتقاربين في السن فوقها ، وبسطوا خريطة أمامهم ، وانهمكوا في الحديث وسلم الرجل حامل الرسالة ، وأدى فروض الطاعة ، ووقف وهو يضع يديه على صدره إلى جوار الباب ، لكن الدراويش المرشد قال : الله ، الله ، وذهب إلى جوار أحد الثلاثة وهو تراب تركش دوز ، فانحنى وقبل كتفه ، وهمس بشيء في أذنه ، فاستدار وقال :

- عجيب .. لم أكن أظن أن هؤلاء الحضرات لديهم كل هذه الجرأة والجسارة ، لماذا لم يذهبوا مع قبلة العالم إلى المشتى ، قل لي ، لأر بماذا يأمران ؟

قال الرجل حامل الرسالة : سيدي ، قالوا لو أعطيتهما الأمان ، لمثلا في حضرتك .

قال تراب : عجيب ، المنادون من الظهر وحتى الآن ، يعلنون الأمان بالأبواق والمزامير .

قال حامل الرسالة : لا يا سيدى ، إنهما يريدان منك صك أمان مكتوب يا سيدى .

قال تراب : هذا أيضا مرتبط بما يستطيعا تقديمه من أعمال .. يريدان أن يأتيا هنا ليقولا ماذا ؟

قال حامل الرسالة : ماذا أقول يا سيدى ، فيما أظن الأمر متعلق بالقلعة يا سيدى .

استغرق تراب تركش دوز في تفكيره لمدة لحظة ، ثم التفت إلى واحد من الدرويشين الحاضرين وقال :

- مولانا .. ماذا تقول ؟ عجيب أن هذا الخانلرخان قد بقي أيضا .

قال مولانا : لا أرى أن في الأمر عيبا . يجوز أن نسلمهم صك أمان مشروط ، لا بد أن خانلرخان قد بقي لكي يؤدي خدمة في غياب الحكومة تليق بمنصب ملك الشعراء القادم .

التفت تراب تركش دوز إلى الشخص الآخر وسأله :

- ما رأيك يا سيد ؟

قال السيد : في رأيي أن نعطي لميزان الشريعة الأمان بشرط أن يأتى بإمام الجمعة الذى سنعيه ، ويقطع عن لعبة التكفير ، ويسلم أوقاف المدارس ومستشفى المدينة ، ويلزم بيته معززا مكرما . أما خانلرخان فمجرد شاعر ، وليس ثم شروط بالنسبة له . نطالبه فحسب

بخمسة آلاف من السكة الذهبية .

قال تراب تركش دوز : أحسنت القول بشكل عجيب ، إذن احمل واكتب .

وكتبوا صكوك الأمان ، وسلموها لنفس الدراويش المرشد الذي ذهب مع الرجل حامل الرسالة ، وعاد الدراويش مرة ثانية إلى مباحثاتهم . قال مولانا :

- أظن أنهما سيحضران معهما شروط تسليم القلعة .

قال السيد : لا حاجة لشروط تسليم ، حركة أخرى ، وينتهي الأمر ، دانتان في صدر بوابة القلعة ، وخلص !!

قال تراب تركش دوز : - عجيب ، أظننت أن القلعة الحكومية سجن يمكن فتح بابه هكذا ؟ يا سيدى ، كل حكومة ، حتى ولو كانت حكومة المدينة الفاضلة ، تحتاج إلى الألاعيب الخفية والحفاظ على الأسرار حتى تستطيع أن تثبت هيبتها في قلوب الناس ، ينبغي أن نكف أيدينا حتى يحل الليل ، ودون ضجة ، تؤخذ القلعة لا بالمدافع والبنادق ، وعلى كل حال من الأفضل أن نصبر حتى يأتي المذكوران .

قال السيد : موافقون ، وإلى أن يحين حين ظهور المذكورين ، خرج بقايا جيش الحكومة من القلعة وجعلوا كل غزلنا أنكاثا ؟ هل نعلم ماذا يجرى داخل القلعة ؟

قال تراب تركش دوز : كل ما تبقى الآن داخل القلعة جزء من الحريم فحسب ، سيكون مبعث قلق فحسب ، ومصدرا للتحريضات

التالية . ثم هناك أيضا مخزنان أو ثلاثة للبارود والتموين ، وهذا ما يهمننا كثيرا . تعلمان أننا لا زلنا عجزة في صنع البارود ، كل القلعة الحكومية تعني بالنسبة لنا مخازن البارود والتموين هذه .
قال مولانا : ليس عندي علم بهذا الموضوع .

قال تراب : عجيب ، وأنت تعلم أن جلاد البلاط من أهل الحق ، وتفصيلات مناقشات آخر استقبال عام في البلاط ، والتي قلتها لك ، كانت نقلا عنه . وبعد ذلك المجلس حدثت أيضا بعض التدابير نقل إلينا خبرها . مع هذه المقدمات التي قاموا بها ، ومع هذه العجلة في الذهاب إلى المشتى ، يظنون أنهم نصبوا لنا مصيدة ، نصبوا الشبكة ، ثم ذهبوا وترصدوا حتى تخرج الطيور من كنانتها في هوى الحب ، فيصلون ويشدون الحبل!

قال السيد : في هذه الحالة ، هل كان من الصالح في الأصل أن نبدي أنفسنا على الملأ ؟ والآن هل يمكن كبح جماح الناس ؟

قال مولانا : هل يعني هذا أنك تقول أنه كان ينبغي علينا أن نجلس واضعين كفا فوق كف ونكتفي بالفرجة ؟

قال تراب تركش دوز : أتعلمان إلام كانت الأمور ستؤول إليه إذا لم نكن قد أخذنا المبادرة ؟ وإذا كنا قد جلسنا واكتفينا بالفرجة ، لكان الناس أنفسهم قد تواجدوا على الساحة ، ما دمت قد فتحت باب القفص ، فلا بد أن يحلق الطائر ، وإن لم يطر ، فالويل له . كان من

المقرر أننا إن لم نحسن التصرف ، فبتحريض من نفس ميزان الشريعة هذا ، وبأموال الأوقاف ، وبمساعدة عملاء الحكومة السريين الذين بقوا حتى الآن ، يقومون بتحريض الناس علينا ، ومن ثم يقوم أهل المدينة أنفسهم باستئصال شأفتنا .. كانوا كما يقول المثل يريدون اللعب على الحبلين ..

قال السيد: حسنا ، حسنا ، وماذا بعد ؟

قال تراب : بقية الأخبار على النحو التالي : في هذه الفترة ، يصل جيش الحكومة إلى الحدود ، وتوقع معاهدة الصلح مع الدولة المجاورة ، وفي المقابل لا بد أن يعطوا شيئاً ثم يأخذوا منهم المدافع والطوبجية من أجل قمعنا ..

وعند هذا الحد من المناقشة ، فتح الباب ودخل حسن آقا الإبن الأكبر للحاج يعلوه الغبار ، وقد وصل لتوه من السفر ، قال : الله .. الله ، ثم تقدم وقبل كتف تراب تركش دوز ثم جلس . وعزاه تراب في أبيه وسأله عما حدث . وقدم حسن آقا تقريراً مختصراً عما كان قد حدث في القرية والمساعدات التي قدمها له كاتبانا ، وكيف وصل خبر ما حدث في المدينة إلى القرية في الوقت المناسب ، والقبض على مساعد المأمور والحراس وتقييدهم ، وتقسيم الأرض ، ثم نهض قائلاً :

لو تسمحون لي ، أنصرف .

أجلسه تراب إلى جواره ، وقال : بهذه السرعة ؟ ظل هنا ، فأنا أحتاجك في أمر ما . ثم واصل كلامه السابق قائلاً :

- نعم ، الحكومة نصبت لنا مثل هذا القخ ، والآن ينبغي علينا أن نبدل هذا الفخ إلى حصن . لقد جرى الحديث في المجلس السلطاني عن تربيع النحسين لمدة ثلاثة أيام ، وتقديما نحن على سبيل الفداء ، لكن : إلى أن يصل جيش الحكومة إلى الحدود ، وتتم مراسم تقديم الهدايا والتحف ، وتبدأ المباحثات مع الدولة المجاورة ، يلزم شهر على الأقل ، ولو أننا استطعنا أن نصنع في خلال هذه الفترة مدفعا كل يوم ، ونعد أكبر عدد من البنادق ، فقد كسبنا اللعبة ، وفي هذه الفترة ، إذا أمكن أن نمد الثورة إلى الأقاليم ، ونخلى القرى الواقعة في طريق جيش الحكومة من التموين ، في هذه الحالة إذا عادت الحكومة بألف مدفع محطمة للقلاع ، فلن تكون ندا لنا .

ثم التفت إلى حسن آقا وسأله عن تفاصيل حياة الكاتبين ، وأفضى إليه حسن آقا بكل ما كان يعرفه . فقال تراب تركش دوز :

- عجيب !! من الممكن إذن أن نأمل ألا يتركنا وحدنا .. وهذه مهمتك ، ثم إنني جعلت الإشراف على خبز المدينة ولحمها تحت مسئوليتك . ينبغي أن تواصل عمل المرحوم الحاج ، وقد أمرت بأن يوضع مائة فدائي مسلح تحت إمرتك . فأوصل التموين إلى الأهالي بأي شكل تراه صالحا ، وعليك أن تأمر بإلغاء الضرائب من على البوابات وتقوم بخفض الأسعار ، وتشترى - بقدر ما تستطيع - التموين من القرى الموجودة على طريق الجيش بضعفي السعر أو ثلاثة أضعافه ، يجب أن يكون تموين المدينة لمدة ثلاثة شهور على الأقل جاهزا في المخازن . والآن : إنهض واذهب إلى هذين الكاتبين صديقك . انصرف

حسن آقا ، وعاد الحاضرون في المجلس مرة ثانية إلى المناقشة التي كانت دائرة بينهم ، قال السيد :

– هل فكرت قط في أن نقوم بعمل ما من شأنه ألا تتم معاهدة الصلح هذه ؟

قال تراب تركش دوز : أنا أنتظر إشارة جلاد البلاط الذي ذهب إلى الجيش ، ويمكن أيضا إذا لزم الأمر أن نرسل جماعة من الحريم مع التحية والإكرام لتوديع الجيش أو لاستقباله . وغدا نرسل السيد مع سبعة من السفراء إلى الحدود . نستطيع نحن أيضا أن نعقد صفقة مع الدولة المجاورة ، دعونا أولا نطمئن بالا من هذه القلعة ، ينبغي أن تفهمهم يا سيد أن مدافعهم والعاملين عليها هي لقمعنا إسميا ، لكنها لقتالهم هم أنفسهم في الواقع .

يا أحباء القلب ، كان الحاضرون في المجلس عند هذا الموضع من المناقشة عندما ارتفعت أصوات لهثات خانلرخان ودقات عصا ميزان الشريعة ، ودخل ميزان الشريعة ومن خلفه خانلرخان ، ومن بعدهما دخل الدرويش المرشد ، ووضع كيس نقود وكتاب التعهد الملقوف على هيئة أنبوبة أمام تراب تركش دوز وانصرف . وكان الحاضرون في المجلس قد نهضوا لقدم الداخلين ، وحيوهما بهزة رأس ، ثم أجلسوهما في صدر المجلس على النطوع . ومنذ اللحظة الأولى لدخوله ، ظل ميزان الشريعة يغمغم همسا وهو يتلاعب بمسبحته دون أن يحيي أحدا أو يرد تحية أو يجمال أحدا ، وعندما جلسا خيم الصمت

على المجلس ، فسأل تراب تركش دوز خانلر خان :

- بماذا يهمس جناب السيد ؟

قال مولانا :- لابد وأنه يقرأ دعاء " وإن يكاد " .

فقال السيد : لا ، لابد وأنه يقرأ : " هذه جهنم التي كنتم
توعدون " .

وضحك الجميع لهذه الدعابة ، وبمجرد أن انقشعت سحابة
الكآبة عن المجلس ، حتى جلس الجميع أكثر راحة ، وبدأ تراب
تركش دوز الكلام :

- أنا سعيد لرؤية السنيين ، كما أرجوا ألا يكون أهل الحق قد
ألحقا أدنى مضايقة بالسنيين .

قال خانلرخان : لست أظن أن هذه المضايقات تكون من
مصلحة أهل الحق . وارتجل بيتا من الشعر يوافق الحال . وواصل
تراب تركش دوز حديثه .

- بعهد الأمان الذي بين أيدي السنيين يكونان في أمان حتى وإن
قاما بإيذاء أهل الحق . لكن السنيين يعلمان جيدا أن الناس عندما تثور
لتصرف ما ، فإنه لا يمكن الوقوف أمامهم ، ووجود السنيين بيننا في
صحة وسلامة هو لمصلحة الحكومة التي لابد أنها لم تأخذكما معها
لسبب ما ، وهو أيضا لمصلحتنا ، وذلك لكي نثبت أننا لسنا
وحوشا مفترسة ، أما وأنتما موجودان فأنتما مضطران إلى

التعاون معنا .

ثم سأل السيد : والآن تقضيا بالكلام ، لنر ما سبب إبداء
السيد الإهتمام بنا ؟

وأخرج خانرخان - الذى كان يستطيع الحركة بمشقة لضخامة
جسده - ساقه اليمنى بمشقة من تحت جسده ، ووضع ساقه اليسرى
بدلا منها ، ثم قال :

- فى فترة غياب قبلة العالم وطبقا للأوامر الهمايونية ، صار
حضرة إمام الجمعة وأنا مسئولين عن كفالة أمور القلعة والحريم
الهمايوني ، ولكن لأن التعهد يمثل هذا الأمر الجلل ليس متيسرا من
هذين الشخصين الضعيفين ، فمن هنا جئنا لطلب المساعدة . ثم ارتجل
مرة أخرى بيتا من الشعر . وأخرج الأمر المكتوب من كم قبائه ،
وفتحه ، ووضع أمام تراب تركش دوز .

قال مولانا : أنتما تعلمان أفضل منا أنه حتى الآن لم تمتد يد قط
إلى القلعة ، لكن فى الحقيقة ، لماذا لم يذهب السيدان مع الجيش ؟
قال ميزان الشريعة الذى كان قد بقي صامتا إلى ذلك الوقت
يتلاعب بمسبحته وهو متأجج الوجه :

- لا إله إلا الله .. على كل حال ، هذا العبد الفقير يعرف واجبه .
وطوال عمرى وواجب الناس الشرعى فى يدي . وعلى أية حال فمنذ
ستين عاما والفقير يتعيش من أهل هذه المدينة .. أكان على أن أنهض

إذن في هذه الأيام العصبية وأمضي إلى أين ؟

وردد لا إله إلا الله أخرى ، وهو في قمة الغضب ، ثم صمت .
وسعل خانلرخان ثم تحدث قائلاً : - ثم إنه لا يصح أن تظل أبواب
القلعة مغلقة إلى يوم القيامة ، فنسأء الحرم الهمايوني لهن
أرواح أيضاً . والله يعلم كم منهن لم يهلك خوفاً حتى الآن .

قال مولانا : إذن فنحن في الحقيقة نتعامل مع حاكمي المدينة
المعزولين . أليس كذلك ؟ حاكم الشرع وحاكم العرف .

وقال السيد : وفي الأساس ، لماذا لم يذهب مخدرات الحرم مع
الجيش ؟

قال تراب : على ما أعتقد ، لأن أسلوب الدراويش في هذا المجال
يوافق هوى قبلة العالم ، أليس كذلك ؟

قال ميزان الشريعة : الله أعلم .. أى علم لأى إنسان بما
سيحدث ؟ على كل حال هذا هو مفتاح القلعة . وأنا من الآن فصاعداً
،أسقط كل إلتزام عن نفسي شرعاً وعرفاً وبهذه العبارة أخرج من
تحت عباءته مفتاحاً كبيراً مطلياً بالفضة ووضعه أمام تراب تركش دوز .

قال السيد : الآن فلتتفضل ولتقل لي ماذا نفعل بهذا الحرم ؟ هل
لدينا خبز فائض ؟

وتحدث خانلرخان قائلاً : وهل بنيت قلعة بهذا الحجم فقط من
أجل الحرم ؟ إذا تعهد السادة بالمحافظة على الحرم في مقابل

الاستيلاء على القلعة الحكومية ، فقد انتهت مهمتنا .

قال مولانا : ماذا يكون لو طلبنا من خانلرخان أن يكون هو شخصيا كبير القائمين على الحرم ويكتفي بهذا المنصب بدلا من ملك الشعراء ؟

قال تراب تركش دوز : أحسنت . كيف يتم هذا يا جناب السيد ؟
الليلة وفي حضور السيدين نفسيهما نفتح باب القلعة ، ومن أجل أن يطمئن السيدين بالا ، نرجو السيد خانلرخان أن ينتقل هو وأسرته إلى القلعة الليلة ، ويضع الحريم تحت حمايته . ثم نعطي وثيقة الأمان الخاصة بالسيدين لينادى بها في المدينة ، وليعلم الجميع بالمنصب الجديد لخانلرخان . كما نتوقع من حضرة إمام الجمعة أن يأتى في صلاة المغرب اليوم بإمام الجمعة الجديد حتى يطمئن الناس بالا ، ثم مروا المؤذنين أن يقوموا بعملهم كما كان الأمر فيما سبق ، فلا يمكن تغيير إيمان الناس في يوم واحد بضرب العصا .

وانتهى المجلس بهذا الكلام . وجمع الدراويش في هذه الليلة حاجياتهم من التكايا وحملوها إلى القلعة الحكومية ، وتركوا التكايا لإدارة شئون الناس . ففي إحداها قام ديوان الشرع والقضاء ، وفي ثانية الإشراف على حساب التموين ، وفي ثالثة إدارة الضرائب ، وفي الرابعة ديوان الاستيفاء لجمع الأهوان وتصنيفها .. وهلم جرا ... وفي اليوم التالي لذلك اليوم هدأت المدينة وسكنت ، وانصرف الناس إلى أشغالهم اليومية ، وانخفض سعر الخبز واللحم

قرشا للـمن ، كما أُلغيت الضرائب والأعشار وبقية وجوه الجباية الحكومية ، وسار دراويش وتحت أباطهم الدفاتر والسجلات لتقدير أموال كل أولئك الذين كانت ممتلكاتهم وأموالهم وحوانيتهم قد احترقت في أحداث اليوم السابق أو نهبت . ووقفت عربات الدراويش على رأس كل حارة وممر وهي مليئة بالأهوان الحجرية ، وكان الدراويش يدقون أبواب الدور واحدا بعد الآخر يجمعون الأهوان النحاسية ويعطون في مقابلها الأهوان الحجرية . ومن ناحية أخرى كانوا قد وضعوا سبعة مدافع من صنع الدراويش فوق عربات ثقيلة ، يجر كل منها بغلان ضخمان مقطوعا الذيل والأذن ، وكانت العربات تطوف دائما داخل المدينة . وكان الناس الذين لم يشاهدوا مدافع يتقافزون فوق رؤوس بعضهم البعض وأكتافهم لمشاهدتها ، وفوق كل مدفع كان يقف مناد طويل القامة وجهوري الصوت ، يدعو الناس ويحمسهم لتغيير الأهوان ، وينشد أحيانا شعرا في محاسن المدفع الموجود تحت قدمه ، وأن دانتـه تسبق الشهاب الثاقب ، وضربته تثير الهلع في قلوب الكفار بهذا الشكل وذاك الشكل .

لكن اسمعوا ما كان من أمر أهل المدينة ، ولم يكن أغلبهم يعلم خفايا الأوضاع وعلى أى شكل تسير . كان كل ما فهموه أن قبلة العالم قد حـسـر ظله ومضى . وأن أسعار خبزهم ولحمهم قد انخفضت ، ولم تعد أجسادهم لحظة بلحظة تصطدم بجسد حارس أو دركي حكومي ، وأهم من هذا كله أنهم عندما كانوا يرون أنه لا خبر هناك عن القتل وسفك الدماء والنهب من قبل الدراويش ، كانوا يسعدون ويسرون ،

ويسرعون بقلوب مطمئنة لرؤية المدافع التي صنعها الدراويش، كانوا كأنما رفع شيء عن كواهلهم يتنفسون براحة أكثر ، ويتمازحون بحرية أكثر ، ويساومون بشكل أكثر من ذي قبل في معاملاتهم . لكنهم كانوا جميعا يحسون بقليل من القلق وهو: لماذا أجبروا على تسليم أهوانهم النحاسية والتي كانت حتى ذلك الوقت ملقاة في ركن من المطابخ وذلك لكي يضعوا مكانها الأهوان الحجرية القبيحة التي من صنع الدراويش ؟ ثم إنها الأهوان التي توارثوها أبنا عن جد ، والآن وقد خلا مكانها كانوا يفهمون أية ذكريات كانت تحملها لهم ، وكيف كانوا قد تعودوا على جرس أصواتها ، وغداة استيلاء الدراويش على الحكم ، انتشرت شائعة بالتدريج داخل المدينة أن اخلاء البيت من الهاون النحاسي نحس لأن كل هون يؤخذ يأخذ بركة البيت معه . وبلغ الأمر حدا أن بعض المنازل لم تقبل تغيير أهوانها ولم تسمح للدراويش بالدخول ، واضطر الدراويش الذين كانوا جميعا مأمورين بالمدارة وحسن السلوك مع الناس عدة مرات إلى كسر أبواب الدور بالقوة ودخولها ومصادرة الأهوان النحاسية بعبوس وسب وشتم وإحداث ضجة وفوضى . وقد تكررت هذه الضجة وتكررت حتى حدث بالقرب من ظهيرة نفس ذلك اليوم أن انطلق ثلاثة أشخاص من أهل حي السروجية ، وذهبوا إلى ميرزا أسد الله ، الذي كان قد جلس إلى بساطه المعتاد الموجود بجوار المسجد الجامع ، وقد وضع منقذ نار إلى جواره ، وانشغل بنسخ ديوان مختارات من الشعر. كان الأشخاص الثلاثة عبارة عن رجلين في أواسط العمر ذوى لحية شهباء وامرأة ، وألقى كل منهم

بالسلام ، وجلسوا بجوار فرش ميرزا ، وبدأ أحد الرجلين قائلًا :

- يا ميرزا ، كنا نريد أن نعلم إلى من ينبغي أن نقدم شكاوينا ؟

وأغلق ميرزا المجموعة الشعرية ونحاها جانبًا ، وأغلق محابره الملونة التي كان قد وضعها إلى جوار المنقد وقال :

- والله لا أعلم حقيقة ، حتى الآن كانت هناك شرطة ومخفر وسجن ، قل لي أنت ، فقد كنت أظن أن مكتب الشكاوى قد أغلق ، وأظن أنه ينبغي تقديم الشكاوى الآن للشخص الأوحـد .

وتأففت المرأة التي كانت قد جاءت لكتابة الشكاوى ، ومن تحت حجابها كانت جمرة من الشعر الأسود قد نزلت على جبهتها ، وقالت :

- ويلاه ! عجباً ! يا لها من أسماء .. أهو رجل يقدر الأمور ؟ كأن هناك أزمة في الأسماء !!

ضحك الرجال ، وسأل ميرزا :

- والآن ، ما هو موضوع الشكاوى ؟

بادرت المرأة بالجواب وقالت : لاشيء ، أولاد الملاحين جاءوا اليوم ، وحملوا هوني بالقوة وأخذوه ، هوني النحاسي العزيز الذي كان كقطعة من الجواهر ، لو كان زوجي على قيد الحياة لأفهمهم في يد من تكون الدنيا ، ولحطم عظام ساق كل من تسول له نفسه أن يقتحم المنزل ، لكن للأسف لم أكن أنا الضعيفة ندا لثلاثة من الدراويش الضخام . وصمتت .

وسأل ميرزا : والآن ، هل دفعوا ثمنه أو لا ؟

قالت المرأة : داهية تأخذهم .. هذا الهون العزيز كان التذكار الوحيد من أمي ، وكانت جدتي قد وضعتة بيدها في جهاز أمي ، ووضعتة أمي بدورها في جهازى ، أقول شيئاً وتسمع شيئاً آخر ؟ أريد منك أن تمسك بالقلم وتكتب لهم .. أليس الناس أحرار التصرف في أموالهم ؟ أولاد الملاعين .. لا يقدرّون على الحمار فيشدّون البردعة ، أريد أن تكتب لهم شكوى لم يسمعوا عنها حتى من آبائهم .

ثم تحدث الرجل الثاني الذى كان ساكناً إلى ذلك الوقت ، وقال :

- تعلم يا ميرزا ، ثلاثتنا لدينا شكوى واحدة حول نفس قضية الهون ، ربما تبدو تافهة ، لكن الظلم دائماً يبدأ من الأشياء التافهة ، لم يكن الهون ميراثاً عن أبي ، كما أنني لم أكن متعلقاً به ، ولم تكن له قيمة تُذكر ، لكن تعلم يا ميرزا حقيقة أنني لا أحبذ أن يصب البارود داخل الشيء الذى كانت زوجتى تدق فيه اللحم . هذا فحسب .. لا أحبذه .. أليس كذلك ؟ تعلم يا ميرزا أن هذه الكرة الحامية التي يقال أنها تنطلق من المدفع لا تؤكل .. أنت معي ؟ هه ؟ يقولون أنها تقتل الإنسان .. صحيح ؟ الحقيقة يا ميرزا أنني لم ألحق أذى بأحد قط ، وحقيقة أن قبلة العالم وحكومته ارتكبوا كثيراً من الظلم ، وحقيقة أن الدراويش يقدمون الوعود الكثيرة .. لكن ما دخلي أنا بهذا الخلاف ؟ وتعلم يا ميرزا أن موضوع الأهوان هذا لا يبسّر بالخير ، هو أول الظلم ، أجل أول الظلم ، وأيضا من ركن المطبخ ...

وقال ميرزا أسد الله بمجرد أن سَمِعَ هذه الكلمات :

- كيف يمكن أن أكتب لكم أنتم الثلاثة عريضة واحدة ؟

فقال الرجل الذي كان قد تحدث في البداية :

- لا يا ميرزا ، حقيقة أن موضوع شكوانا نحن الثلاثة واحد ، لكن الهون الذي كان في منزلي كان وقفا ، ويمكن أن يدق عجل بأكمله فيه ، وحوله نقش بعرض كف اليد أى أن له تاريخا يعود إلى أربعمئة سنة خلت ، وكم بذل ثلاثة أشخاص من جهد حتى رفعوه من فوق الأرض ، كان قد غاص في ركن بالفناء لنصف ذراع ، وهؤلاء لا تقوى لديهم ولا دين ، لكن قل لى أنت .. هل يصح أن يسلب مال الوقف هكذا ولا يدفع شىء في مقابله ؟

ابتسم ميرزا وقال : - ربما تقول أنه فضول لا يصح منى .. لكن ينبغي أن أفهم ما سأكتب ، فقل لى لأفهم .. ماذا كان يفعل مال الوقف في منزل جنابك ؟

فأجاب نفس ذلك الرجل :- هكذا ، وهذه هي المصيبة في الموضوع ، إنه كان وقفا على الأولاد الذكور فقط ، وإلا كنا قد بعناه مائة مرة حتى الآن ، كان جدنا الأكبر قد أوقفه على الحسينية ، ولخمسة أجيال قمنا بأعمال البر والخير في هذا الهون ، وبعد أن مات الآباء ، لم يبق شىء ، الحسينية بدورها هدمت وضُمت إلى القلعة .. لست أدري أتذكر هذا أو لا ؟ كان ذلك عندما وسعوا حظيرة القلعة منذ عشرة سنوات ، ولنفس هذا السبب هدمت حسينية عائلتنا ، ولم تأخذ في

مقابلها أقل شيء .. ومن كل ذلك الهيلمان ، كان هذا الهون قد بقي
فحسب .. مثل باب المسجد .. لا يُنتفع به ، فوضعه في ركن من الفناء ،
وفي كل عام نستخدمه في ليلة عشاء الغرياء^(١) وفي جلسة واحدة كنا
ندق فيه مائة من من اللحم ونعد الكفتة الصغيرة ونضعها بين طيات
الأرز ونوزعها على خلق الله .. والآن وقد أتوا وحملوه وأخذوه ، يمكن به
أن يصنع مدفعان .. والآن إن أتوا وقالوا كم ثمنه ، سوف أقول هل
ينبغي أن تحدد قيمة لأموال الوقف ؟ فضلا عن أنهم وضعوا بدلا منه
ثلاثة أهوان حجرية بحجم كف اليد وذهبوا .

وعندما انتهت شكوى الشاكين ، قال ميرزا أسد الله :

- مع كل هذا يمكن كتابة عريضة واحدة ، ومن الأفضل أن
يكون الأمر هكذا ، فعندما تكون الشكوى جماعية ، يمكن أن تصل
إلى كل أذن صماء ، ثم إنه من الممكن أن يصبح هون الوقف هذا
شفيعا للهونين الآخرين .

وبدأ في كتابة العريضة ، ولم يكد يصل إلى السطر الثاني ،
حتى تدخلت المرأة الشاكية وقالت :

- حقيقي يا ميرزا يجب ألا تنسى أن علامة هوني العزيز أن
لحافته إطارا .

وأتم ميرزا كتابة العريضة ، وبينما كان يقرأها للشاكين إذ

(١) ليلة عشاء الغرياء هي ليلة الحادي عشر من محرم أو ليل نهار عاشوراء
حيث بقي من تبقى من آل البيت رضوان الله عليهم كالغرياء بعد مصرع الحسين
رضوان الله عليه . المترجمة .

أطل حسن آقا ابن الحاج ممرضا يتبعه إثنان من الدراويش يحملان البنادق ، تبادلوا التحايا ، ودخل الدراويشان المسجد ، وجلس حسن آقا .

قال ميرزا : وصلت في الوقت المناسب يا حسن آقا ، إسمع أنت أيضا ربما يكتب كلمتين على سبيل التوصية أسفل هذه العريضة وتيسر أمور عباد الله ، وتلا العريضة من بدايتها إلى نهايتها بصوت عال . وأخذت المرأة الشاكية تقول وهي منهمكة في السماع " يا روح قلبي .. جعلت فدى هذا الخط " بينما أخذ الرجلان الشاكيان يتحسسان لحيتيهما ويهزان رأسيهما . وكان حسن آقا قد استغرق في التفكير ، وعندما انتهت تلاوة العريضة أعطاها ميرزا لحسن آقا الذي كتب أسفلها " أستعين بي وأنا المسئول إلى العترة الواحدة في موضوع الاستيلاء على الأهوان الثلاثة . حي على خير العمل . حسن " وأعطاهما لأحد الرجلين الشاكيين ، ثم نادى على أحد الدراويشين من داخل فناء المسجد ، وأمره بأن يرافق الشاكين ، ويرى أية جماعة من الدراويش صادرت أهوانهم ، وأن يوصل الأهوان بمجرد أن توجد إلى منازل أصحابها ، ويأخذ ايصالات بها ويأتي بها إلى ميرزا . ثم نهض الشاكون ، وقبل أن تخرج المرأة النقود من طرف طراحتها ، مد أحد الرجلين يده ووضع أجر كتابة العريضة فوق منضدة ميرزا أسد الله الصغيرة ، وألقوا السلام ، ثم ذهبوا في رفقة الدراويش حامل البندقية .

يا أعزاء القلب .. بمجرد أن صار ميرزا أسد الله وحسن آقا وحيدين ، هشا وبشا لبعضيهما من جديد ، ثم قال حسن آقا :

- هل زال عنك تعب الطريق ؟

قال ميرزا أسد الله :- لم يكن هناك تعب في الطريق ، لكن يدي اليسرى تؤلمني ، أعتقد أن الجند كانوا قد قيدوها بشكل سيء .

قال حسن آقا :- ولو كانوا قد أتوا بك إلى المدينة على نفس ذلك الوضع ، ماذا كنت ستفعل ؟ هيا انهض ، فلنمض إلى رفيقك ، فأنا لدى كلام مع كليكما ، ثم إن المكان هنا بارد كما لا يصح أن نتحدث أمام الناس .

ونهض كلاهما ، وطوى ميرزا أسد الله النطع في الفرش ، وأوصى به البقال المقابل له ، وأخبره إلى أين سيذهب . وهرول مع حسن آقا إلى داخل المسجد . كان الوقت قرب الظهر ، ولم يكن ثم خبر عن الضجة اليومية للناس حول الحوض ، كما أن رئيس حفظة الأباريق الذي كان قد جلس في مكانه المعتاد عاطلاً قد طأطأ رأسه حتى لا يرى ميرزا .

كان ميرزا عبد الزكي في ركن من وكالته منفرداً ، قد أقعى أمام منقذ نار ، وتبادلوا التحيات وجلسوا ، وسألوا عن الأحوال ، وذكروا طرفاً مما حدث في القرية ، ثم شكى ميرزا عبد الزكي من كساد السوق ، ومرة واحدة وكأنه تذكر أمراً قد نسيه ، إلتفت إلى ميرزا أسد الله قائلاً :

- لماذا لم تطرح على هذه الفكرة منذ وقت مبكر يا عزيزى ؟ هـه ؟

وسأله ميرزا أسد الله :- أية فكرة يا جناب السيد ؟

قال ميرزا عبد الزكي : - لقد انتهى العمل يا عزيزى فى إطار السجادة . ثم التفت إلى حسن آقا وأضاف :

- يا عزيزى .. ميرزا هذا يعلم الكثير ، لقد ألهى زوجتى بعمل مستمر وشغلها^(١) بحيث لم يعد عندها وقت لحك رأسها يا عزيزى . ثم قص على حسن آقا ما حدث ، وضحك ثلاثتهم . ثم قال حسن آقا :

- أقول بلا مقدمات ، نحن فى حاجة إلى وجودكما أنتما الإثنين، ولقد دعاكما تراب محلة الحق رسمياً ، وعصر أمس جرى على لسانه المبارك قوله " إذن يمكن أن نأمل ألا يتركنا وحدنا " . ظل ميرزا أسد الله صامتا ، بينما سأل ميرزا عبد الزكي سعيداً ضاحكا :

- وأى عمل يتأتى منا يا عزيزى ؟

قال حسن آقا :- يحتاج تسجيل كل هذا السلاح وهذه المؤن وإثباتهما إلى قبيلة من الكتبة ، وأهل الديوان إما أنهم ذهبوا مع الجيش ، أو عثر كل منهم على جحر واختفى فيه ، وأنا قلت لنفسي إن هذا العمل هو عمل ميرزا عبد الزكي ، يأتى ويستعين بجماعة ، ويقوم بتنظيم الدفاتر والسجلات . وهناك أيضا أعمال ديوان القضاء وهى لا

(١) حرفيا : وضع يد زوجتى وقدمها فى قشر جوز . المترجمة .

تتأتى من أيدينا ، إذ ينبغي أن يتولاها شخص يكون موضع ثقة من الأهالى ، قلت : لعل ميرزا أسد الله يقبل .

أزاح ميرزا عبد الزكى التراب من فوق نار المنقد ، وتحرك ، ثم قال :
- لا اعتراض عندي يا عزيزي ، لكن دعنا نرى ماذا يقول ميرزا أسد الله .

قال ميرزا أسد الله :- هذا العمل يفوق قدراتي ، فلقد خلقت لكتابة العرائض على باب المسجد .

قال حسن آقا : دعك من المجاملة .. فهذه الأيام ليست أيام الهرب من المسؤولية .

وأضاف ميرزا عبد الزكي :- يا عزيزي .. لماذا تقوم بالخط من قدر نفسك ؟ إنه قبـاء خيط على قامتك ، وأى شخص أصلح يمكن العثـور عليه يا عزيزي ؟

قال ميرزا أسد الله :- أنا لا أخط من قدر نفسي ، كما أنني لست الشخص الذى يتهرب من المسؤولية ، لكنكما كلاكما تعلمان أنني لست من أولئك الذين يقومون بأى عمل يُعرض عليهم ، ففي رأيي أن أساس أى عمل هو الإيمان ، المبادئ ، في البداية يكون الاعتقاد ثم يكون العمل ، ولا بد أنكما سمعتما عن قصد القربة ، وإذا كان الآخرون يقومون بالشعائر الدينية فحسب بقصد القربة ، فأنا أقوم بكل عمل بقصد القربة ، وفي حين أنني لا أدري حتى الآن ما يدور في رؤوسكم أصلا . ولا شك أنني لا أقوم بتكفيركم ، إلا أنني لست

أيضا مؤمنا بكم ، وفى مثل هذا الوضع ، أى عمل يتأتى من يدي ؟
قال حسن آقا : - كيف لا تعلم ما برؤوسنا ؟ ، لقد قمنا بطرد
حكومة .

قال ميرزا عبد الزكى :- أنتم لم تطردوها يا عزيزى ، لقد ذهب
قبلة العالم إلى المشتى ، وأنتم رأيتم الميدان خاليا ، وها أنتم
تركضون ، نحن لا نخلق يا عزيزى .

قال ميرزا أسد الله : - حتى الناس يقولون أن الحكومة قد
نصبت لكم مصيدة .

قال ميرزا عبد الزكى :- إذن يا عزيزى ، مصيبة أن تكون خائفا؟
أليس كذلك ؟

قال ميرزا أسد الله : يا جناب السيد ، أنا ثابت فى مكانى ،
وليس من اللازم أن أواصل دق رأسى بالباب والجدار ، وأن أقوم كل
يوم بملعوب جديد ..

قال ميرزا عبد الزكى :- يا عزيزى ، ما الحاجة للتعريض ؟
حقيقة أننى أهل مغامرة ، لكن بالنسبة للمغامرة التى حدثت فى القرية ،
أظن أن دورك كان أكثر من دورى .

قال حسن آقا : أنظر يا ميرزا أسد الله ، حقيقة أن
الحكومة قد نصبت لنا مصيدة ، لكننا بدلنا هذه المصيدة إلى
حصن من أجل كل أولئك الذين قاوموا الظلم ، وما دمت قد جمعت

كل المظلومين ، يمكن بسهولة اقتلاع جذور الظلم . لنر ، أخشى أن تكون قضية الأهوان هذه قد تركت فى قلبك شيئاً ، أليس كذلك ؟ لقد انتهى ذلك الزمان الذى كان فيه صوت الهون مقدساً ، والآن فإن مصير عالم القدس نفسه معلق بهزيم المدافع ، ثم إنك تعلم أننا على حق ، فلقد ضيقنا تماماً من المذابح الدائرة بين السنة والشيعة ، وشمرونا من أجل خدمة الناس .

قال ميرزا أسد الله : الحكومة كانت أيضاً تردد كثيراً من هذه الكلمات الضخمة .

قال حسن آقا : لكنك تعلم أنه ليست لدينا فيهقة في الكلام ، وحتى الآن لم يجف كفن أبي بعد ، نحن نضحى بالأرواح ، ووضعنا رؤوسنا على أكفنا ، ونؤكد أن النصر حليفنا .

قال ميرزا عبد الزكى : - يا عزيزى ، أيضاً صباح اليوم ، أرسل خانلرخان مقرب الديوان إلى من أسلمه مسودة كل أشعاره ، واضح يا عزيزى أن الجو غير ملائم .

قال ميرزا أسد الله : أشك فى هذه النقطة . لأفرض أنكم خلصتم مدينة أو مدينتين أخريين ، لكنكم تعلمون أن العجلة الأصلية تدور ، والحكومة بكل خدمها وحشمها ومخازن سلاحها حية وحاضرة ، ثم ظننتم أنكم أجريتم الماء من الساقية .. مع نظام ملوك الطوائف الذى نحن فى إيساره ، ينبغي أولاً تعطيل ريشات العجلة .

الموجودة تحت الماء .

قال حسن أقسا :- إذن لا اعتراض لديك على أصل الموضوع ،
لكنك تشك في احتمال نجاحنا ، ولا بد أن لك الحق في أن تخاف .

قال ميرزا أسد الله : في النهاية أنت تدعوني إلى عمل ليس
واضحاً لي كما وكيفاً ، وتريد أيضاً ألا أفكر فيه بعمق ؟
فلنفترض أنني جبان ، لكن ما الهدف من أمر نجاحه مشكوك فيه
إلا مذبحة جديدة ؟ وإلى جوار هذا ليس عندي أساس إيمانكم ، وأنت
تعلم أفضل مني أنه من أجل إيمان ما ، يمكن السيسر بعين
مغمضة .

قال ميرزا عبد الزكي :- يا عزيزي .. في الأصل من أجل ماذا كل
هذا التعمق في التفكير ؟ ما الذي تبقى من كل أعمارنا ؟ يا عزيزي ،
كلما أفكر أنني سأظل بقية عمري في نفس هذا الحانوت مع هؤلاء
الزبائن وكل هذه الخرق البالية التي تفوح برائحة مقر مغسل الموتى ،
أحس بالغثيـسان . هي في النهاية يا عزيزي حركة ، هزة ،
تغيير ، تنويع ..

ضاع كلام ميرزا عبد الزكي وسط ضوضاء خمسة أو ستة
رجال ونساء يحملون رجلاً متورماً على أكتافهم ويهمون جميعاً
بدخول مكتب ميرزا عبد الزكي ، وأخذت امرأة تردد :

- آه يا سيدي العزيز ، الأمان ، انجدي ، ضاع زوجي من يدي ،
آه يا سيدي العزيز ، الأمان

قال رجل :

- كم قلت عندما تنامون ليل اقرأوا ورد شجـا شجا . (١)

وكان آخر يقول : بهدوء يا بني ، فقد كسرت رجـله .

نهض ميرزا عبد الزكي وقد رأى أنهم يخلعون باب مكتبه ، وتقدم
وسأل :

- ما الخبر يا عزيزي ؟ ماذا حدث ؟ هل أصيب بطعنة سيف ؟

قالت إحدى النساء : ثعبان ، ثعبان يا سيدي العزيز ،
وموضع لدغته أسوأ من طعنة السيف ، فاغرفاه !!

سأل ميرزا عبد الزكي : وأين كنتم يا عزيزتي منذ الصباح
حتى الآن ؟

قالت نفس السيدة : يا سيدي ، أتوسل إليك ، لقد جئنا من
الطرف الآخر للمدينة وحتى هنا ، كل كتبة الأدعية للموا فرشهم وذهبوا
وأصبحوا دراويش .

قال ميرزا عبد الزكي : الخلاصة يا عزيزتي أنكم الآن أفسدتم
عملي ، وبألف مشقة كنت قد استحضرت روح والد هذين الحاضرين .
والآن من أين أحصل عليها ثانية يا عزيزتي ؟

(١) ورد شجا شجا من الأوراد التي تتلى ليلا في البيوت اعتقادا في أنها
تحمي من لدغ العقارب والثعابين . المترجمة .

قال أحد الرجال : عجباً !! أخى يضيع من يدى وأنت تحمل هم
روح والد الآخرين ؟ في النهاية صف لنا دواءً ، ورداً ، تعويذة .. إذن
لماذا فتحت هذا الدكان ؟

نهض ميرزا أسد الله ، ومد يده نحوهم بجذابة ورق كان قد كتب
عليها شيئاً ما وقال :

- لا تغضب يا أخى ، هذا السيد ليس في حالة تركيز ، ولقد
أصابه حضور الروح بدوار ، خذ هذه التوصية واحمل مريضك إلى
حكيمباشى الحى ، عيادته قريبة ، وهو خالى .

وخرج من الحانوت ، ودلهم على عنوان عيادة خان داىى وعاد .
وعندما بقوا وحدهم ، تحرك حسن آقا وقال :

- ميرزا ، إننى أفهم أنك من أهل المبادئ ، لكن الخلاصة من أجل
من وضعت هذه المبادئ إلا من أجل الإنسان ؟ صحيح ؟! وأساس
العمل عندك قائم على الإيمان أصلاً والمبادئ .. وهذا أيضاً صحيح،
لكن ذلك الإيمان الذى يعتبر قتل الإنسان جائزاً ليس حقاً بل باطل .
والآن : هل تفهم ماذا يدور في رؤوسنا ؟ المحافظة على حياة
الإنسان حتى في مقابل التفريط في الإيمان وفي المبادئ . وأنت
تعلم أن أساس كل إيمان كان هكذا منذ يومه الأول ، مع الفارق بأن
الزمان عندما تغير ، فإن الإيمان والمبادئ أيضاً تتبدل
وتتغير .

قال ميرزا أسد الله :- إذا كانت المبادئ مبادئ في الواقع ، فإنه

لا ينبغي أن تتغير بتغير الزمان ، المبدأ هو ما له مبدئية على الدوام ، ولا شك أنني لا أنظر أيضا إلى هذه المذبحة التي تقاومونها ، لكنى بنفس معتقداتي القديمة أعرف حفظ المبادئ .

قال ميرزا عبد الزكي : لا أفهم يا عزيزي ، إذن فما وجه الخلاف بينكما ؟

قال ميرزا أسد الله : - في أن كل مذهب ومسلك جديد يوسع في النزاعات الحيدرية النعمتية^(١) وتصبح حجة جديدة للتكفير ومن بعدها سفك الدماء وتصفية الحسابات بين خلق الله ، وهذا يناقض المبادئ التي يؤمن بها كلانا ، وأيضا فقد مضى ذلك الزمان الذي كانت فيه المذاهب عاملا أصليا للتغيير .

قال حسن آقا :- إذن تقول بأنه ينبغي في مواجهة مثل هذه المظالم أن نجلس ونشاهد ونحن مكتوفي الأيدي ؟

قال ميرزا أسد الله : لا أعلم ما الذي ينبغي عمله ، فلا أنا زعيم القوم ، ولا مدعي إمامة ، ولا أنا جئت بمذهب جديد ، وما أعلمه أنني وحدي لا أستطيع القيام بشيء ، وأنكم أيضا تتحمسون بغير داع وأنكم منهمكون في تهيئة الأرضية لإحداث مذبحة جديدة .

قال حسن آقا : ما دمت على ظنك بأنه لا يتأتى من يدك عمل ، فلا جدال أننا أيضا متحمسون بلا داع .

(١) الحيدرية والنعمتية فرقتان من الفتيان الدراويش ظهرتتا في إيران الأولى في القرن السابع الهجري والثانية في القرن التاسع الهجري واحتدم بينهما النزاع الذي كان يتطور في بعض الأحيان إلى قتال في الشوارع . المترجمة .

قال ميرزا عبد الزكى : في النهاية يا عزيزى ، أنا وأنت لسنا بمفردنا ، هل نسيت كيف صارت مقاومتنا البسيطة قدوة ونموذجاً ؟

قال ميرزا أسد الله : أعلم ، وأعلم أيضاً أننى لو خُيرت بين هؤلاء وبين الحكومة ، فسوف أختار هؤلاء السادة ، ليس بسبب مذهبهم الجديد ، لكن لشهامتهم ، لكن أمور دولة ليست كأمر قرية ، وإذا كنا قد وفقنا فى القرية ، من أين نعلم أننا سنوفق فى الدولة ؟ .

قال حسن آقا : وهذا أيضاً مرتبط بمساعدتك ومساعدة أمثالك ، إذا كانت مساعدة شخصين كافية فى قرية ، ففي المدينة تلزم مساعدة مائتين أو ألفين أو من أمثالكما . وأصلاً لكى أطمئن خاطرك يا ميرزا . بالنسبة لى .. وإلا من أكون أنا ؟ بالنسبة لنا ، ليس مهما أن نكسب أو لا ، لأن الحق ينتصر فى النهاية . وابدأ من زردشت وتعال حتى اليوم ، كل الأولياء عاشوا على هذا الأمل وماتوا على هذا الأمل . تعلم بلا جدال حساب الألفيات ؟ على رأس كل ألف يظهر الحق مرة أخرى ، وإلى أن يظهر الولي الجديد ، إلهم بالنسبة لنا أن نحفظ بنواة المقاومة حيية ، نواة الأصالة البشرية فى وفيك وفى ذلك الذى لدغته الحية وفى زوجة ميرزا ، أتعلم يا ميرزا ؟ أهل السوق فحسب هم الذين ينبغى عليهم أن يفكروا فى عاقبة الأمور ، وأن يفكروا فى الفائدة التى ستعود عليهم ، وأنا وأنت لسنا من أهل السوق .

قال ميرزا عبد الزكى : يا عزيزى ، لست مثلكما أستطيع أن أخوض فى الأمور العقلية ، لكن ما أعلمه أن قبلة العالم لم يفر مع خدمه

وحشمة بلا داع، ومن المؤكد أن ثمة شيء قد حدث ، أن خوفا ما قد حل - يا عزيزي- مما دعى خانلرخان أن يرسل طالبا مسودات شعره خشية أن تقع في يد أحد ، مثل هذه الأحداث لم يشهدها أبائنا يا عزيزي ، إنها تحدث مرة كل خمسة أو ستة أجيال وأيضا بالعنف إذا حدثت ، وأنا يا عزيزي إن شئت الحقيقة أعترف بأهمية لهذه الأحداث بالنسبة لي ، وبخاصة بالنسبة لعيني التي شاهدت إخلاء بلاط بكل أبهته وعظمتيه ، فأى واحد من آبائنا رأى مثل هذه الأحداث يا عزيزي ؟

قال ميرزا أسد الله :- لا تكن عاطفيا يا جناب السيد . لأفرض أن هؤلاء الحضرات انتصروا ووصلوا إلى الحكم ، في رأيي أنه لم يحدث جديد بشكل جدى ، ذهب خصم وحل محله خصم آخر . تعلمان أني في الأصل معارض لكل حكومة . لأن ضرورة كل حكومة العنف ثم القسوة يليها المصادرة والحبس والنفي ، منذ ألفي عام والناس في انتظار حكومة الفلاسفة التي نسجوها من خيالهم غافلين عن أن الحكيم لا يستطيع أن يحكم ، أمر بدهي ، بل لا يستطيع أن يدلي برأيه ويحكم ببساطة . الحكم منذ الأزل هو عمل الرجال الحمقى وعمل الأراذل الذين تجمعوا حول علم مغامر وتحمسوا لكي يقوموا بنفاقه . عمل أولئك الذين يستطيعون وضع ضمائرهم وتصوراتهم في ديوان شعر ، ويحكمون بمعيار الغرائز الحيوانية ، القصاص ، السن بالسن ، التعويض ، العقاب ، سفك الدماء والحكم في حين أن أمور الدنيا الأصلية تمر في غياب الحكومة ، وفي حضور

الحكومة تتعرقل أمور الدنيا ، كل مشكلة من مشكلات البشر إن لم تحل عرفيا ، وتطورت إلى تدخل الحكومة ، تصبح أساسا للحقد لأجيال تالية .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزي ، ألا تعلم على الإطلاق أنك لا تفتأ تتحدث بمنطق العجزة ؟ أولئك الذين لم يجدوا طريقهم قط إلى الحكم ؟

قال ميرزا أسد الله : إذن كنت تريدني أن أتحدث بمنطق أولئك الذين وجدوا طريقهم إلى الحكم ؟ التاريخ مليء بمنطقهم ، المقولة الأولى: في القتل ، والمقولة الثانية : في القتل ، والمقولة الأخيرة أيضا في القتل . لقد رأينا أي نتن صفعوا به العالم بصفحاتهم تلك المذهبة ! أنا لا أقبل هذا المنطق .

قال ميرزا عبد الزكي : واضح يا عزيزي . ومن هنا فكلامك ليست له رائحة ، كلامك في الأصل يا عزيزي يفوح برائحة اليأس .

قال ميرزا أسد الله :- أفضل من أن تفوح منه رائحة الابتلاء بحب الدنيا ورائحة الدم . وفي الأصل ذلك الذي تعتبره عجزا أعتبره أنا شرفا لي .

قال ميرزا عبد الزكي :- أهو نفس الشرف الموجود عند النسوة العجائز المقعدات ؟ حسنا !! مما لا شك فيه يا عزيزي أنك مادمات لا تتحرك من مكانك ، فأقل نتيجة لهذا هو أن تظل شريفا مثل العجائز تماما .

قال ميرزا أسد الله : لا يا جناب السيد ، الشرف والعجز من .
مقولتين مختلفتين ، فالإنسان عاجز غير قادر على العمل ، أما الشريف
فيكون قادرا على العمل لكنه يضبط نفسه .

قال حسن آقا : حسنا .. وما دخل هذا بعملنا ؟

قال ميرزا أسد الله : له دخل بهذا الشكل وهو أن هذا السيد يرى
أن إنسانا مثلي عاجز عن المشاركة في الحكم ، فلا بد أن يكون المرء
جالينوس العصر أو لديه القدرة على تحريك جبل أحد حتى يكون لائقا
بالمشاركة في الحكم ، وخطأه في نفس هذه النقطة ، يا سيدي : لكي تطفو
فوق سطح الماء ينبغي فقط أن تكون خفيفا ، لكن اللؤلؤ يبقى
دائما في قاع البحر إلا إذا أرسلت غواصا في أثره ، وللمشاركة
في الحكومة يكفي أن يكون لديك قليل من الذكاء ، وتفهم في أي اتجاه
يكون جذب السلطة ثم تعرف بعد ذلك كيف تغمض عينيك ، لاشك في
أوائل العمل ، ثم تصبح عادة ، وحتى عين الضمير المفتوحة لن ترى
شيئا أيضا ، أما العمل الذي يريده الرجل الحق فهو أن يدير ظهره
لهذه المائدة الحافلة .

قال حسن آقا : الخلاصة أن أرسطو شارك في فتوحات
الإسكندر ، كما تولى نظام الملك الوزارة ، وذهب البيروني تابعا لمحمود
إلى الهند ، ولف خليفة بغداد في البلاد بأمر السيد نصير^(١) ماذا تقول

(١) نظام الملك هو وزير ملكشاه السلجوقي ومؤلف الكتاب المشهور " سياست
نامه " وقتل على أيدي الإسماعيلية سنة ٤٨٥ هـ ، ، ومحمود هو محمود =

في هؤلاء وآلاف آخرين تعرفهم خيرا مني ؟

قال ميرزا أسد الله : كل واحد من هؤلاء الحكماء الذين أحصيتهم مع كل حكمته كان بشرا مثل كل البشر ، ولم يكونوا معصومين . كلهم كانوا مذنبيين وتابوا ووضع أرسطو المنطق حتى يقوم خلفاء تلميذه بالإعتذار عنه بفصاحته وبلاغته ، وغسل البيروني يديه بماء كتابه " ما للهند " دماء كل الهنود الذين قتلهم محمود ، وسعى السيد نصير كثيرا ليتطهر عن طريق كتابه في الأخلاق ، ونظام الملك كان في الأصل مثل خانلرخان الماثل بين أيدينا والذي عندما رأى الجو غير ملائم أرسل في طلب مسودة أشعاره ، وأعدك أنه إذا عادت الأوضعا إلى سيرتها الأولى وكتب التاريخ نفس أولئك الذين كتبوه حتى الآن ، بعد مائتي سنة ستصبح نفس مسودات خانلرخان هذه ديوان شعر ذائع الصيت ، وربما يكتب بماء الذهب ، كل الذين ذكرتهم في رأيي طفيليون على السلطة ، قراضة ملتصقة تحت ذيل بغل السلطة الجامح . وفضيلا عن ذلك فإنها سلطة أرسيت على الظلم ، ليست سلطة الحق . والسلطة الحق في كلام الشهداء ، ولنفس هذا السبب فأنا أنظر إلى التاريخ من وجهة نظر الشهداء ، من كوة عيون المسيح وعلى العلاج والسهوردي ، لا من وجهة نظر الكتابات المذهبة للحكماء الذين وصلوا إلى الحكم ، أولئك الذين كتبوا أن انوشيروان رجل عادل مع كل

= الغزنوي والبيروني هو مؤلف تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ، وخليفة بغداد هو المستعصم الذي سقط وأنهت الخلافة في عهده بعد الغزو المغولي والسيد نصير هو نصير الدين الطوسي روى أنه نصح المغول بعدم قتل الخليفة بطريقة تسيل معها الدماء ومن ثم لف في اللباد وضرب حتى مات " سنة ٦٥٦ هـ " المترجمة

هذا الرصاص المذاب الذي صبه في حلق أتباع مزدك .

قال حسن آقا : إذن فأنت تبحث عن الإمام المعصوم ؟

قال ميرزا أسد الله : وماذا ينبغي أن نفعل ؟ كل شخص يسعى وراء الشيء الذي لا يملكه .

قال حسن آقا : هكذا يتحدث أولئك الذين ينتظرون إمام الزمان .

قال ميرزا أسد الله :- تعلم يا حسن آقا أن العصمة أمر نسبي ، ومن أجل الوصول إليها أو اختيارها ، يوجد الإنسان في كل لحظة في مفترق طريقين : طريق الحق وطريق الباطل . ولا يلزم أن تعاني الإنتظار لسنوات ممتدة ، لكن ذلك الذي ينتظر ظهور إمام الزمان ، على الأقل يعتبر هذا الصنف من الحكومات حكومات ظلمة يعني لا يقبلها .

قال حسن آقا : لكنك ترى أن هذا الصنف من الحكومات موجود وقوى ونو مكنة أيضا ، مع أنها على حد قولك تستند على سلطة الظلم .

قال ميرزا أسد الله : ولهذا السبب فأنا أنظر إلى الدنيا من وجهة نظر الشهداء .

قال حسن آقا : ولهذا السبب أيضا فإن كل شخص ينتظر إمام الزمان يضع يدا فوق يد ، ولا يتحرك من موضعه في مواجهة أى ظلم . وقلوب كل هذا الصنف من البشر سعيدة بكلامك هذا : البقاء على باب انتظار المعصوم بشرف وعصمة . ، وترى أنه ينبغي في النهاية أن يحطم طلسم هذه الدائرة والتداوم في موضع ما . ثم :

ألست أنت الذى يقول أنه قد مضى ذلك الزمان الذى كانت فيه المذاهب
العامل الأصلي للتغيير لا ؟ وألست تعلم أنه خارج نطاق الأديان تفقد
الشهادة معناها ؟

قال ميرزا أسد الله : لا ، لا تفقده ، وأنا أصلا لا أقبل أن الشهادة
حكر على نطاق الأديان

قال ميرزا عبد الزكي : أنتما يا عزيزى لا تفتان تسيران فوق
مستوى عقلي . وأنا أصلا يا ميرزا لست أؤمن أيضا بكلام هؤلاء
ال دراويش ومعتقداتهم ، لكن يا عزيزى عندما تبلغ السكين العظم
ويفسد الزمان ، ولا تفوح مجرد رائحة السعادة ، لكل شخص الحق
في النهاية يا عزيزى أن يقول : ربما توجد السعادة في هذا الطريق ،
ويجوز أننا حتى الآن لم نكن نفهم ، إذن لنمض ونستظل بأجنحتهم ربما
تصير الحياة أكثر راحة .

قال ميرزا أسد الله : الحياة بالنسبة لإنسان لا يفكر مريحة
تماما ، أكل ونوم وسلوك دواب ، لكن عندما يحل الفكر لا تكون
مستريحا حتى وإن كنت موجودا في الجنة .. إذن فلماذا فر آدم أبى
البشر من الجنة ؟ ، لأن العقل حل برأسه ، وبدأت تساؤلاته .. ماذا
تظنون ثقل الأمانة التى أبت الجبال حملها فحملها الإنسان ؟ ترك آدم
حياة الدواب داخل الجنة ، وذهب إلى الدنيا المليئة بتساؤلات
العقل والمسئولية ، إلى دنيا البشر المليئة بالهول والرعب .

قال حسن آقا : ألا يكفي كل هذا الكلام الذى قلناه عن آدم أبى

البشر منذ بدء الخليقة وحتى الآن ؟ في النهاية لماذا لا نتحدث عن الإنسان ضحية العصر ؟ نعم ماذا فعل الجد الأول للبشر ولماذا فعله ، لكن ما هو واجب حفيده هذا العاجز ؟ أن يجلس ويكون مجرد مشاهد لهذه السفالات ؟ إذا كان آدم قد هرب من الجنة فلأنه كان تحت سيطرة غرائزه الحيوانية ، ونحن أسرى في جهنم تحت سيطرة الشهوات والسفالات . نفس ذلك الحق الذي نتحدث عنه والمسئولية تحتم على أن أتحرك مثل بقية البشر وأعمل وأكون آملا وأقاوم ولا أستسلم للظلم واستشهد ، حتى على الأقل لتنظر إلى الدنيا من وجهة نظري ، وفي الأصل ما الحاجة إلى شهادتي ؟ ألم يستشهد " النقطة الأولى " ؟

سأل ميرزا عبد الزكي : هل تقصد كوتشك جفردان ؟ هو الذي ألقى بنفسه في دن الزئبق يا حسن آقا .

قال حسن آقا : يا جناب السيد ، لماذا تردد كلام ميزان الشريعة ؟ أي دن زئبق ؟ ألم تسمعهم يقولون إنه عندما يظهر إمام الزمان يظن الناس أنه أتى بدين جديد ؟ هه ؟ حسنا ، لماذا لا يكون تراب محلة الحق هو إمام الزمان ؟

قال ميرزا أسد الله :- ليطمئن خاطرك ، فالأمريسيان عندي ، لست ممن ينتخلرون إمام الزمان ، وفي رأيي أن كل إنسان هو إمام زمانه ، وهذا هو ما يعنيه حمل الأمانة .

سأل ميرزا عبد الزكي : إذن في النهاية ستحدثنا - يا عزيزي - عما ينبغي أن نفعل ، أنت معارض للحكومة ، وبهذا الكلام والآراء الجديدة لا تقدم أي عون ، ولست أيضا منتظرا لإمام الزمان . إذن

فقد تركت كل مقاومة يا عزيزى . فهل يصح في النهاية أن تضع جسدك في مواجهة السيل ؟ وعلى حد قولك حتى أولئك الذين ينتظرون إمام الزمان وهم يضعون يداً فوق يد يفضلونك يا عزيزى ، إنهم على الأقل حافظوا على المقاومة في صورة انتظار حي .

قال حسن آقا :- انظر يا ميرزا ، الوضع الآن غير عادى ، فلا أحد منا يزاوِل حياته المعتادة ، لماذا ؟ لأن حادثاً ما قد وقع ، لأن شيئاً ما أعلن في وجه الظلم ، هذا الشيء هو أحفاد آدم أبي البشر مضاف إليهم إيمان جديد ، وأنت ليس لديك هذا الإيمان ، ليس هذا فحسب ، لكنك تؤمن بمبادئك ، وبناء على مبادئك ومعتقداتك القيمة ، فإن هذا الوضع غير قابل للتحمل ، إذن لماذا تتوقف ؟ ألسنت ترى أن مصير هذا الإيمان يستطيع حتى شخص واحد أن يرجحه إلى هذا الطرف أو إلى ذاك الطرف ، إلى هذا الوجه من العملة أو إلى الوجه الآخر ؟

قال ميرزا عبد الزكي :- أنا يا عزيزى أريد أن أعرف منك أنت الذى تعتبر كل إنسان إمام زمانه ، ما هو دورك في خلال ذلك ؟ وأية مسئولية تدعيها لنفسك ؟

قال ميرزا أسد الله :- يا جناب السيد ، لست أنا الذى صنعت هذا الوضع ، كما أن الذى صنعه لم يصنعه وفق هواى ، أنا لا أقبل أصلاً هذه الدنيا بأوضاع البشر فيها ، هكذا ، لا هذا الوجه من العملة ولا وجهها الآخر ، ليست دنياى حقيرة إلى هذا الحد بحيث تستقر على وجه عملة أو على ظهرها . ولم تزل دنياى ذات واقع في عالم الخيال ، ومن هنا لا فرق عندى بين السجن والجنة والنار ، وحيثما أكون وفي أية حال ، أكون أنا فحسب ، أعيش بخيالى .

قال ميرزا عبد الزكي : - يا عزيزي ، ها هي رائحة الإحباط
تفوح من كلامك مرة ثانية ، أتريد أن تقول " مثل هذا القفص لا
يليق بحسن تغريد مثلي " ؟

قال ميرزا أسد الله :- لو كان من المقرر أن الكلمات العظيمة لا
يتحدث بها إلا العظام فحسب ، لما شاع الحق :

سأل حسن آقا : لم تقل يا ميرزا إنك سوف تجلس في النهاية
وتضع يداً فوق يد وتشاهد حتى تضيق شهيداً إلى عداد الشهداء أو
أنك ستتحرك وتنضم إلينا ؟

قال ميرزا أسد الله :- أنظر يا حسن آقا ، عندما يثور شخص ما ،
لا بد وأن يكون لديه هدف ، تعلق بشيء أو نفور من شيء أو إيمان بشيء
ما ، وليس لدى الإيمان الكافي بعملكم ، ولست أهتم بشيء في هذه
الدنيا .

سأل حسن آقا : على الأقل تحس بكراهية ؟

قال ميرزا أسد الله : أحس بكراهية ، وبشكل سيء ، أنا الكراهية
نفسها ، أنا الإعتراض نفسه على الوضع الراهن ، ولا بد أن أكون
الثورة نفسها ، لكن ...

قاطعه ميرزا عبد الزكي وقال :- أذكر يا عزيزي عندما كنا في
القريّة ، عندما كنت تقول إنك عندما لا تستطيع أن تقوم بأمر ما
فعلى الأقل من الأفضل أن تحفظ كرامتك ؟ أذكر أنني قبلت كلامك ؟
حسنًا ، إذا قمنا وتأتى من أيدينا أمر ما ، في هذه الحالة بأي
شكل يا عزيزي يتأتى لك أن تحفظ كرامتك ؟ هه ؟ بإنكار كل شيء

فحسب ؟ وهل هذا هو حمل الأمانة ؟

ظل ميرزا أسد الله صامتا لفترة وقد طأطأ رأسه ، ثم رفعها ،
والحظة تفحص صديقيه الذين كانا قد جلسا في انتظاره ، ثم هز
رأسه وقال :

- وآسفاه ، وآسفاه إن هذا الجسد لمدين .

سأل حسن آقا : حسنا ؟

قال ميرزا أسد الله :- لا شيء . كنت أفكر لو أن هذا
الجسد لم يكن مدينا ، مدينا بكل هذه النعم التي يتجرعها دون
استحقاق ، كم كان يستريح إذا انتحى جانبا ، وكان متفرجا ، ونسج
الخيال أو لجأ إلى الشعر والعرفان ، ولكن - ويا للخسارة - ليس ممكنا
مقابلة كل هذه النعمة بالسكون . هذا الهواء ، هذه الصداقة ،
هذا النفس ، ولدى حميد ، السجادة التي ينسج إطارها ، ينبغي أن
تقابل كل نعمة من هذه النعم بالعمل لا بالسكون ، السكون ثم السكون
ثم السكون لا يُجازى أى شيء . وأنت يا جناب السيد أهل عمل تمضي
وراء المغامرات ، ما أسعدك !! وأنت يا حسن آقا لديك الإيمان ، وما
أفضل هذا ، لكنى في حاجة تدفعني إلى العمل ، لكي

فنهض ميرزا عبد الزكي ، وقبل جبين ميرزا أسد الله ، وظل حسن
آقا يقاوم نفسه حتى لا تتساقط دموعه ، وسمع ميرزا أسد الله يقول :

- حسنا جدا ، حسنا جدا يا جناب السيد ، سأتي ، مع العلم
بأننا لن نداوى ألما من آلام الزمان .

الجلس السابع

يا أعزاء القلب ، قام كاتبانا بتعطيل محل عمليهما لمدة أسبوع بعد ذلك اليوم ، وذهبا فى أثر عملهما وكسبهما الجديد . وقام ميرزا عبد الزكي بسد فجوات مكتبه بالكافور ، وأغلقه ، كما وضع على بابه قفلا ضخما ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، كانت إحدى قدميه فى تكية الخبازين ، والقدم الأخرى فى القلعة . وكان يشرف على أعمال الكتبة التابعين للديوان وغير التابعين للديوان الذين كان قد جمعهم من هنا وهناك ، وأسند لكل منهم عملا ، ومن أجل حفظ حساب الأهوان والمدافع والبنادق والأسلحة الأخرى ، كان ميرزا عبد الزكي قد اختار كتبة من الدراويش أنفسهم ، وأمرهم أن يحفظوا دفاترهم وسجلاتهم بالشفرة ، وأن يكتبوا الأعداد والأرقام كما تقتضي عاداتهم بالنقاط والحروف ، حتى لا يفهم غريب سر أعمالهم . وفي الأصل يعتقد بعض رواة الأخبار أن حساب الجمل صار متداولاً منذ ذلك الوقت ، وكان ميرزا عبد الزكي نفسه هو الذى أحدث تغييرات فى أشكال الحروف ، وأعد دفترا أشبه بكتاب الشفرة ، وعرضه على تراب تركش دوز ، ثم وزعه على المحاسبين . أما ما جرى بشأن حفظ حساب تموين المدينة فقد استعان بأهله وعشيرته وأصدقائه ومعارفه وزملائه القدامى . فأرسل خصيصاً إلى كل من عرفهم من كتاب الأدعية وضاريي الرمل ومعزمي الثعابين والمشعوذين فى المدينة ، وسلم كل عشرة منهم لكاتب

ديوانى يعلمهم أسلوب العمل ودفتر الشفرة وأصول مسك الدفاتر والسجلات ، ويشرف على أعمالهم . حقيقة أن عددا كبيرا من أهل هذه المهنة كانوا قد احترفوا دق الوشم ، وكان لكل منهم يوميا من عشرين إلى ثلاثين زبون ، ولنفس هذا السبب كانوا قد تعلوا لميرزا عبد الزكي بأنهم لا يريدون التدخل في أرزاق أهل المدينة ، لكن الكثيرين منهم كانوا قد خفوا لمساعدة ميرزا عبد الزكي بسبب كساد سوق كتابة الأدعية .

كان عمل ميرزا عبد الزكي من الصباح حتى الظهر هو الإشراف والتفتيش على مخازن المؤن ، ثم من الظهر حتى الغروب مراجعة حساب الأسلحة داخل حجرة من حجرات القلعة الحكومية ، ومن ماله الخاص كان قد اشترى من ميدان المكارية نفس ذلك الحمار الذى كان قد ذهب إلى القرية ممتطيا إياه بسرجه وعدته ، وبدون أن يشغل الدراويش ، كان كلما لزم الأمر يمضي من أقصى المدينة إلى أدناها كآته الدركي ، ومن هذا المخزن إلى ذلك المخزن ، كان يقوم بكل هذا بحيث يعلم ظهر كل يوم كم يوجد في كل مخزن من الإحتياطي ، وكم وصل إلى المخازن بالأمس من أحمال الحمير من القمح والشعير والبقولات ومن أين أتت ، وكم من أحمال الحمير وزعت على الخبازين أو وزعت بين البقالين والرزازين ، ونفس هذا الترتيب قام به بالنسبة للأسلحة ، وبمساعدة سبعة من الدراويش الكتبة الذين كانوا يجلسون في نفس الحجرة في القلعة، كان لديه كل غروب تفاصيل دقيقة عن كل نوع من الأسلحة. كما كانت زوجته درخشنده هانم مشغولة تماما في نسج السجاد ،

ومن ثم لم يعد لديه لاهو ولا زوجته أى قلق من قبل الموضوعات إياها ، حقيقة أن درخشنده هانم لم تكن قد وصلت بعد من المقدمات إلى المتن ، لكنها بمساعدة زرين تاج هانم كانت قد أقامت حتى ذلك الوقت في دارها ثلاثة أنوال لنسج السجاد وكان لديها خمس عشرة أجير ممن ينسجون السجاد ، كان من بينهم ثلاثة رجال ممن يقرأون التصميم والباقي من بنات الجيران والأصدقاء والمعارف اللآئي كن قد ضقن من القعود في المنزل ، ولم يكن لديهن اعتراض حتى ولولم يأخذن أجرا . وكانت زرين تاج خانم كل صباح بمجرد أن ترسل حميد إلى المكتب ، تأخذ بيد حميدة وتمضي إلى منزل درخشنده هانم ، فتعقد ملاحظتها على شال وسطها وتعمل حتى الغروب على قدم وساق ، وكانت " أسطى " العمل بالنسبة لهم جميعا ، وكان العمل قد شغلها كليهما ، كما أصبحت كل منهما موضع سر الأخرى بشكل لا يوصف .

أما ما كان من أمر ميرزا أسد الله ، فبدلا من كتابة الشكاوى للناس ، أصبح عمله من الصباح وحتى الغروب التحقيق في شكاوى الناس . وكان موضع عمله تكية السروجية ، وكان قد سلم مهجع التكية فكنسوه ورشوه وفرشوه بالحصر ، وأتى بنفس فرش مهنته ككاتب للشكاوى ووضعه إلى جوار باب المهجع ، وبمساعدة عشرة من الكتبة الذين كانوا يجلسون متجاورين ولكل منهم فرش مثيل ، كان يقوم بأمور الخلق . وكان هناك عشرون درويشا من المتمنطقين بأحزمة الرصاص عمالا في خدمة جهازه ، كانوا يحجلون دائما في فناء التكية وممرها ، وعند اللزوم كانوا يذهبون لاستدعاء أولئك الذين

كان ينبغي احضارهم إلى ديوان القضاء ، حقيقة أن ميرزا أسد الله كان رسمياً كاتب ديوان القضاء ، لكن لم يكن هناك رئيس يرأسه كقاض ، كما لم تكن هناك حاجة لرأس هو آخري ، كان قد رتب الأمور بحيث تحل جميع الأمور عرفياً وبالشورى وبدون تعسف أو قسوة ، ذلك أنه كان قد قسم الأعمال ، فكل من كانت له دعوى ملكية كان يحيله إلى المساعد الذى بجواره ، وكل من كانت لديه دعوى زواج أو طلاق كان يحيله إلى المساعد الثانى ، وكل من كانت له دعوى عرض كان يحيله إلى المساعد الثالث .. وهلم جرا ... وكان هناك ثلاثة من مساعديه ، وكلهم كانوا من كتبة المدينة المعتبرين ، كانوا فى الأصل فقهاء ، فإذا عنت مسألة شرعية ، أو لزم عقد أو طلاق ، كانوا ينهون الأمر فى المجلس . وعلى كل حال قليلا ما كانوا يحتاجون إلى إرسال الدراويش المتمنطقين بأحزمة الرصاص فى أثر أحد الأشخاص ليحضروه أو يصدرون حكما بالسجن أو الغرامة .

يقول لكم الراوى يا أعزائى أن الأقدار قد شاعت أن تكون أغلب شكاوى الناس فى تلك الأيام من حكومة الدراويش عن الامتناع عن النفقة . وبعد هدوء قضية الأهوان ، كان أغلب الشاكين من النساء اللائى هجرهن أزواجهن وتزويوا بزى الدراويش ، واستودعوا الله زوجاتهم وأطفالهم . ومنذ الأيام الأولى لشغل ميرزا أسد الله الجديد ، كانت أربعون امرأة يوميا متفاوتات فى العمر ، من سن العشرين إلى سن الستين قد تقاطرن على تكية السروجية وملا لفظهن وصياحهن وصراخهن كل مهجع التكية . وصرخ فيهم ميرزا الذى كان قد أرتج

عليه بشدة :

- هه ، كل هذه الجلبة لا طائل من ورائها . أخبرن كبراكن أن تأتي وتجلس وتقدم شكواها مثل البشر .

وبينما ساد الصمت الجميع ، إذ تقدمت من بينهن امرأة طويلة نحيلة ، ودلفت إلى المهجع ، وجلست أمام ميرزا وقالت :

- زوجي معدوم الحمية هو مشهدى رمضان العلاف ، أصابه الله بالجنون . عديم الحمية هجر عائلة من سبعة أشخاص وذهب ، ولا أعلم هل كان هؤلاء الدراويش ينقصهم حانوتي ؟

قال ميرزا أسد الله : حسنا ، ماذا تقولين الآن يا أخت ؟ ماذا تريدين ؟

قالت زوجة مشهدى رمضان :- الأمر واضح تماما يا ميرزا ، إما أن يأتي معدومو الحمية هؤلاء - أعمى الله عيونهم - ويحاولوا حياتهم ، أو فاسمحو لنا أيضا أن نأتي ونصبح درويشات ، لكي نثبت أننا لا ننقص شيئا عن هؤلاء الرجال فاقدى الغيرة .

ورأى ميرزا أسد الله أنه لا يمكن أن يقول شيئا على الإطلاق جوابا على هذا الكلام ، وبمشورة زملائه طلب من النسوة يوما مهلة وأخلى التكية ، وحتى ظهر ذلك اليوم كتبوا لائحة جماعية ، وأعطوها لحسن آقا ليعرضها على تراب تركش دوز ، ولم يكن الغروب قد حل بعد حتى نادوا بها كقانون جديد على كل الدراويش أهالي المدينة أن " مسلك

الدرأوئش هو ترك الشهوات أما ترك رعاية الأسرة فليس من مروءة مسلك الدرأوئش" وفي صباح اليوم التالي عندما جاءت نفس النسوة ، أرسل فأحضر أزواجهن واحدا واحدا ، وأخذ تعهدا على كل منهم بأن يذهب على الأقل مرة في الأسبوع إلى أهله وعياله ، والحقيقة أن هذه المشكلة قد استغرقت أسبوعا ، وأدت في النهاية إلى اعتراض الرجال ، واعترض أحدهم على ميرزا في النهاية قائلا :

- إذا كان مسلك الدرأوئش لا يحتوى حتى على هذه الميزة ، فما فائدته ؟

لكن أحدا لم يعره اهتماما ، وأمر ميرزا أسد الله بأن يحققوا بحيث أن كل واحد منهم لا يستطيع أن يدبر نفقات منزله وإعاشته ، يحدد لهم جعل الدرأوئش ، وانتهى الأمر بخير وسلام .

وكان من حسن حظ ميرزا أنه لم يعد هناك خبر عن الشكاوى القديمة التي كان ميرزا يقضي وقته في كتابتها من الصباح إلى المساء ، فلا كانوا يأخذون حصان أحد أو بغله للسخرة ، ولا كان هناك حرس وشرطة يطمعون في مال أحد ، كما لم يعد هناك خوف من ميزان الشريعة ، ولا جدال أنه كان هناك سرقة وفسق لأنه إذا كنتم تذكرون في اليوم الأول لحكومة الدرأوئش ، حطم الناس أبواب السجن ، وتركوا كل السجناء يتخذون طريقهم إلى المدينة ، وأحيانا كانت تحدث أيضا عريضة وباطجة ، وفجأة يخلو سوق ما ، ذلك أنه منذ تبوأ الدرأوئش السلطة ، أهمل منع السكر وتحريمه ، وفتحت الحانات والغرز في المدينة ،

وانخفضت أسعار الحشيش ، لكن ميرزا أسد الله كان يعرف كيف يتصرف جيدا^(١) ، فكل من كان يسرق كان يسترد منه ما سرقه أو يأخذ عوضا عنه ، وإذا لم يؤده ، كان يوسم بخال ضخف فوق جبينه ويخرج من المدينة ، وكل من هتك عرض أنثى ، كان يعقد عليها في نفس الجلسة ، وإن كان ثم شخص ثالث مشترك في الموضوع ، كانوا يخبرون المرأة في أى من الرجلين ، ويأخذون الغرامة من الآخر ، وعلى هذا النحو .. لكن مشكلة جديدة كانت قد ظهرت في المدينة ، كان الدراويش قد طلبوا من ميرزا أن يعالجها ، وكانت المشكلة تتصل بنظافة المدينة وما يتعلق بأمور الدفن عند الأهالي ، ذلك أنه منذ أن فر كبير الحجاب مع جيش الحكومة من المدينة ، فإن مقالة نظافة المدينة وأمور محل غسل الموتى قد ظلا شاغرين ، وعلت القذارة أبواب المدينة وجدرانها لمدة عشرين يوما ، ولكن لما كان الجو آخذا في البرودة ، لم تكن المشكلة بادية للعيان ، ثم إن ميرزا أسد الله أرسل في استدعاء حسين عازف الكمان الذى كان قد حضر مجلسه فيما مضى من الزمن واستمتع بألحانه ، وبرجاء وإلحاح وضمنان شخصي منه أوكل إليه هذين العاملين ، وبالرغم من كبير الحجاب كان قد قاوم قبلة العالم على هذا العمل الثانوى مقابل ألفي قطعة ذهبية كل عام ، فإن حسين عازف الكمان تعهد بأن يدفع شهريا ألفي قطعة ذهبية لخزانة الدراويش ، فقد كان بيع قمامة المدينة يدر دخلا ، وكذلك ملابس الأموات وزيتهم وحليهم.

(١) حرفيا : أين ينيم البعير . المترجمة .

ولهذا السبب فإن تراب تركش دوز أرسل شهادة تقدير إلى ميرزا أسد الله ، لأنه في الحقيقة منذ أن قطعت يد حسين عازف الكمان بأمر من ميزان الشريعة حاكم الشرع حتى لا يعزف ثانية - وكان هذا منذ خمس سنوات - كان حسين عازف الكمان قد صار بلطجيا رهيبا ، وكان العالم بما فيه من بشر في هول من يده الباقية ، وكان من أولئك الزعماء الذين يجعلون المدينة بأجمعها تضطرب في مصادمات الحيدرية والنعمتية^(١) ، وكان يقضي أغلب الأوقات في السجن ، وكان من اللازم أن يسيطر عليه الدراويش بشكل ما ، إذ أنه منذ ذلك اليوم الذي تقاطر فيه الناس على السجن وهدموه ، وتحرر حسين عازف الكمان مثل الآخرين، وحتى ذلك اليوم الذي خطرت فيه هذه الفكرة في رأس ميرزا أسد الله ليشغله بهذا العمل ، كان قد شهر مديته خمس أو ست مرات ، وأصبح باعثا على المتاعب بشكل سيء ، وما إن انتهت هذه المشكلة بخير وسلام، حتى لم تكن هناك متاعب جديدة . وعلى هذا النحو في آخر الشهر الأول لحكومة الدراويش ، كان هناك في السجن ثلاثة أشخاص فحسب من أهل المدينة ، إثنان من القتلة ومحتكر ، لم يكن يجوز الإفراج عنهم ، كما لم يكن ميرزا مستعدا للحكم عليهم بالإعدام .

أما ما كان من أمر حسن آقا ، فقد كان قد اختار سبعين من فدائيي الدراويش ، كانوا دائما فوق سروج خيولهم ، ينتقلون من هذه القرية إلى تلك القرية ، يشترون المؤن ، ويعدون البقر والخراف ،

(١) الحيدرية والنعمية فرقتان متشاحتان في مدن ايران منذ القرن السابع وصارت مثلا على النزاع المحتدم الذي يؤدي إلى الفوضى .

ويحملونها على الإبل أو على عربات ضخمة من صنع الدراويش ويوصلونها إلى المدينة ويحولونها إلى المخازن أو إلى المسلخ . وكان حسن آقا قد جعل كل واحد من أخويه مسئولا عن جهة ما ، فأرسل الأخ الأصغر إلى الأملاك السابقة لأبيه ، وبمساعدة أهالي تلك القرى الذين كان كل منهم قد أصبح مؤيدا متطرفا لأهل الحق ، كانوا يشترون في نطاق عشرة فراسخ من المنطقة كل مؤن وأغنام إضافية يجدونها ويرسلونها إلى المدينة ، أما الأخ الأكبر فقد أرسله إلى القرى الموجودة في طريق جيش الحكومة ، وكان من أحسن ما فعله حسن آقا أنه إلى أربعين فرسخ حول المدينة ، كل قرية كانت في إقطاع أحد رجال الحكومة الذين فروا ، أودعها أمانة لدى كبار القرية حتى عودة المالك الأصلي ، وبدلا من الثلاثة أو الأربعة أنصبه حق المالك ، كان يأخذ نصف هذه الأنصبه أغناما ومؤنا ، وهذا ما كان يرجوه أهل القرى من الله ، ومن أجل أن يخرس كل لسان استصدر فتوى طويلة من ميزان الشريعة فحواها " .. أما بعد فإن عوائد كل ما كان قبلة العالم قد أقطعه لأحد ، يمكن في غياب ذلك الشخص أن تتفق على المنفعة العامة . " ونودي بهذه الفتوى في المدينة وفي كل القرى المحيطة ، وأبلغوها إلى مسامع الجميع . ولا جدال أنه من أجل استصدار مثل هذه الفتوى ، كان من اللازم التغاضي عن أملاك ميزان الشريعة نفسه ، وعن كل الأوقاف التي كانت نظارتها في يده ، وهذا ما فعله حسن آقا . وعلى هذا النسق كان أن انتشرت أخبار أعمال الدراويش بالتدريج في جزء كبير من المملكة ، وقام عدد كبير من القرى بطرد الملاك ، وفي كل يوم ، كانت تأتي أخبار جديدة من ركن من المملكة ما من شأنها علو أمر الدراويش .

يا أعزاء القلب ، كان من رجال قصتنا أيضا مشهدي
رمضان العلاف والذي رأينا كيف أتت زوجته شاكية منه . ذلك أنه
منذ إشعال النار في سوق العلافين ، لم يذهب ليعتصم فحسب ، بل
دخل مباشرة في كسوة الدراويش ، وسلم ظهر يده ، فوسموا عليه
صورة الطبرزين ، وصار مسئولا عن امدادات الفحم والخطب للأكوار
الجديدة والتي أقيمت حديثا في القلعة ، والتي كان الدراويش يذبيون
فيها الأهوان ، ثم يصبون المدافع في قوالب كبيرة مصنوعة من الرمل
والأسمنت . وكان الحكيمباشي أيضا من شخصيات قصتنا والذي
بالرغم من أن وضع حياته لم يكن قد اختلف قط ، وكانت لديه نفس
عيادته القديمة ، يستقبل فيها كالعادة كل يوم ثلاثين أو أربعين مريضا
يفحصهم ويكتب لهم الوصفات ، وكان يذهب كل أسبوع إلى القلعة
الحكومية لفحص كل امرأة من حريم السلطان تكون مريضة ويكتب لها
الوصفة ، ذلك أنه من بداية الأمر وبواسطة ميرزا عبد الزكي ، أرسل
خانرخان إلى خان دايبى وطلب منه أن يتعهد بهذا الأمر في غياب
حكيمباشي البلاط الذي كان قد ذهب مع الجيش فقبل . وأخذت أحوال
المدينة تمضي على هذا النحو ، وكان الدراويش يعدون أنفسهم -دون
ضجيج- للقاء جيش الحكومة ويتجهزون ويتجهزون ، وحتى نهاية
الشهر الثاني لحكومتهم ، كان لديهم ثلاثون مدفعا بعيدة المدى ،
وثلاثة آلاف وخمسمائة بندقية ومن السهام والأقواس والحراش
والسيوف ما لا يحصى . وفي نفس تلك الأيام كان أن وصل خبر عن
الجيش الحكومي أنه نزل في إحدى المدن الدافئة على الحدود ، وأن قبلة

العالم أعلن نفس المدينة عاصمة للممالك المحروسة ، وسك عملة جديدة ، وعين إمام جمعة للمدينة ، وأنه لا يفكر في العودة في القريب العاجل

صادف الشهر الثالث لحكومة الدراويش شهر القوس وقد ترك برودة الشتاء خلف ظهره ، وما إن بدأ أهل المدينة في الحركة حتى تساقط البرد بشدة ثلاث مرات ، وسلبت العاصفة الثلجية والجليد المدينة الحركة ، فلا شيء قط ، كما أغلقت الطرق ، ولم يعد هناك خبر يصل عن جيش الحكومة ، ولا مؤن تصل إلى المدينة ، حقيقة أن خيال المؤيد والمعارض قد حُد ، فلا خبر سيصل عن جيش الحكومة في الأوقات الحالية ، ولا بد أن هذا سوف يخمد فتن عملاء الحكومة السريين وتحريضهم ، لكن تماما في آخر الشهر الثالث ، كان أن سرت شائعة ظهر أحد الأيام أن عشر مدافع من مدافع الدراويش قد انفجرت ، وأن ثلاثين درويشا قد مزقوا شر ممزق ، وخمسين منهم جرحوا جروحا بالغة ، والحقيقة أن مدفعين فقط كانا قد انفجرا ، وثلاثة فحسب من الدراويش قد قتلوا .

يقول لكم الراوى يا أحباب أنه كان من عادة الدراويش كلما صنعوا مدفعا أن يضعوه على عربة يشدوها إلى بغلين قويين ، ويطوفون به في أزقة المدينة وأسواقها بالمزامير والأبواق والطبول ، ويجربونها إلى جوار الحفرة الكبيرة للمكارية الموجودة في الناحية الأخرى من الخندق . وكان هذا في حد ذاته مجال مشاهدة عند أهل المدينة وبخاصة

الأطفال الذين لم تكن لهم من تسلية أخرى إلا اللعب بالغاب ونطة الانجليز ، فكان النساء والرجال والأطفال يسرون خلف قافلة المدفعية وهم يصفقون ويهللون ويغنون:

لأكن فداءً يا الله لمدافع الدراويش
مدافع الدراويش خربت بيت الملك

ويوم أن حدث ذلك الحادث ، كان ما حدث أن الدراويش حملوا خمسة مدافع لاختبارها ، وكالعادة بينما كان الأطفال يهللون ، كان المدفعية قد حشوا فوهات المدافع بالبارود ، وأشعلوا الفتيلة ، لكن ما إن تحركوا ليبتعدوا ، حتى ارتفع صوت انفجار مهول ، وارتفع التراب والغبار في الجو ، وقبل أن يفيق الناس ليفهموا ماذا حدث ، كان الدراويش المتمنطقون بأحزمة الرصاص قد انهمروا عليهم ، وفرقوهم ضرباً بالسياط ، لكن صراخ الطوبجية الذين جرحوا كان يصل إلى بوابة المدينة ، والمتفرجون الذين تقاطروا داخل المدينة قالوا لأول من قابله :

-ألا تدرى ما حدث ؟ رأيت بعيني رأسي أن عشرة منهم قد مزقوا

- ألا تدرى ؟ ألا تدرى ؟ كل مدفع تحطم إلى مائة قطعة .

- نعم المدافع الخمسة انفجرت ، وكل قطعة منها قتلت ثلاثة .

- يا زكي .. انظر بماذا كنا نسعد قلوبنا .

- لكن .. يا له من صوت عجيب ، لا رأيت يوم سوء ، لا تدرى كم

من الدم قد سال .

— كانت يد أحدهم تحلق في الهواء وكأنها الطائر .

وعندما شاع الخبر صار ملكا للجميع ، ولما كان لكل منهم حق فيه ، فقد تصرف فيه بالزيادة والنقصان .. ومن هذا الفم إلى هذه الأذن ، ومن تلك المرأة إلى ذلك الرجل . على كل حال ، عندما انتشر خبر انفجار المدافع في المدينة ، اجتاح الرعب الناس ، حتى ذلك الوقت كانت قلوبهم راضية بالرخاء ورخص الأسعار وبالقضاء على مضايقات العسس والمخفر والدرك والحرس ، ثم إن كل جماعة منهم كانت ترى المدافع كل يوم ، وكانت قلوبهم قوية ، وبنفس النسبة التي كانوا يحسون بها أن أهوانهم في أجساد المدافع ، كانوا يحسون بأنهم ملاكها بشكل ما ، بنفس النسبة كانوا يحسون بأنهم أصحابها ، وبنفس نسبة إحساسهم بأنهم ملاكها ، كانت قلوبهم تقوى ويحسون بجرأة أكثر ، تماما مثلما يحس بالجرأة أكثر كل من امتلك في كيسه على عملة ذهبية أكثر ... لكن الآن وقد افتضحت المدافع فجأة ، وأصبح لكل إنسان الحق في الشك في المدافع التي اجتازت التجربة سليمة.. ولم يكن هناك بد من أن يفكر كل إنسان : أنه إذا عاد جيش الحكومة ، ألا تكون مصيبة أن يعتبروه مقصرا ويربطوه إلى مؤخرة حماره ؟ وكان أن عاد الناس إلى صمتهم ، وغرقوا في تفكيرهم ، وفقدوا شهيتهم . قال عدد منهم أن الأمر بسبب البرد ، وقالت جماعة أخرى أن سحرا وشعوذة تدخلا في الأمر ، وقالت جماعة ثالثة أن عملاء الحكومة السريين قد تسللوا إلى داخل جهاز الدراويش .. لكن واقع الأمر أن صناع السلاح لم يدعموا الأهوان الخفيفة لتكون أكثر ثقلا ، ولم يحددوا

عيار النحاس الموجود في كل منها ، وذوبوها معا ، وكانوا يتسرعون في صب المدافع منها .

على كل ، كانت أول نتيجة للخوف والرعب الذي اجتاح أهل المدينة أن ازدحمت أبواب الخبازين من غداة ذلك اليوم ، تماما كزمن القحط ، كان القائمون على الموازين الذين كانوا حتى اليوم السابق يعطون زبائنهم بشق الأنفس مع كل خمسة أرغفة رغيفا بائتا لا يجدون الآن فرصة لحك ظهورهم ، أما الوزن والخبز غير الناضج الذي يباع بالعدد وبلا وزن ، فلا خبر عنهما ، وكان الفرانجون يقرصون الخبز ويدفعون به إلى الفرن ولما يختمر بعد ، ثم يخرجونه ولما ينضج أو "يتقمر" بعد ويعطونه للناس الذين كانوا قد وقفوا متكئين على أبواب الدكاكين ويتناقزون على رؤوس بعضهم البعض وأكتافهم .. ونفس هذه الفوضى والضجة كانت على أبواب دكاكين البقالين والعلافين والرزازين ، وبعد يومين من انفجار المدافع ، لم يعد عند بقال أو علاف حبة بقل أو مؤن .. ولا جدال أنه بعد أسبوع همد حرص الناس وهوسهم ، وخلت المخابز مرة أخرى ، وأخذ البقالون بضائع جديدة من مخازن المدينة ، وبقي الخبز على أنجاد الخبازين ، ويات ، لكن قلق الناس ظل قائما .. ووجد عملاء الحكومة موضع قدم .. فكان أن حدث عصر ذات يوم تلجى أن خرجت جماعة من خمسمائة امرأة من حي "دركوشك" أغلبهن من نسوة الجنود والحرس الذين كانوا قد غادروا المدينة مع الجيش ، وسرن والمصاحف على رؤوسهن ، وجئن إلى القلعة ، لكي يقسم الدراويش على المحافظة على أرواح نساء الحرم وأعراضهن ، ولم يكن

يمكن ابلاغ الخبر إلى تراب تركش دوز ، لأنه منذ انفجار المدافع كان قد اعتكف في خلوة أربعينية ، ولم يكن يستطيع الدخول عليه سوى شخص أو شخصين من المقربين موضع الأسرار . واضطر الدراويش إلى التوسل بالسيد ميرزا عبد الزكي الذي كان يحجل في القلعة عصرا ، وذهب ميرزا بدوره إلى خانلرخان ، وبالتوسل والرجاء أخرجه من الحرم ، فقضى ساعة كاملة يخطب فيهن ، وفي النهاية تقرر أن تلتقي نسوة المدينة مع قريباتهن الموجودات في الحرم يوم الإثنين من كل أسبوع ، وهدأت الضجة ، لكن أى هدوء.. ففي نفس اليوم دهس ثلاثة من الأطفال الرضع تحت الأيدي والأقدام ، وفي اليوم التالي طلق عشرون رجل زوجاتهم طلاقا بائنا . ولم يكد ميرزا أسد الله ومساعدوه يخلصان من شر هذا الطلاق والرد ، حتى حدث ذات صباح غائم أن تقاطر على تكية السروجية مائتا شخص من طلاب المدارس بعمائم ذات أهداب وصدور مفتوحة هاتفين : وامصيبتاه.. واعلماه ، يا إلهي !! ترى ماذا حدث ثانية ؟ وأسكتهم الدراويش بمشقة ، واختاروا من بينهم خمسة من الكبار والزعماء ، واصطحبهم إلى المهجع ، وصرخ أكبرهم سنا - وكان معهما بعمامة سوداء وذا لحية بيضاء - ولما يجلس بعد :

- لا يمكن الكلام مع هؤلاء الزنادقة .. سيدى العزيز ، لكن أنتم وكل منكم قد أكل خبز العلم عمرا ، لا بد وأنكم تعلمون معنى "فسيعلم الذين ظلموا " .

ونظر ميرزا أسد الله إلى زملائه الذين كانوا جميعاً قد طأطأوا برؤوسهم إلى الأرض ، وقال وكأن لم يحدث شيء :

- المعنى الظاهر للآية يمكن معرفته بشيء من الصرف والنحو ، وليس التفسير من عملي ، لكن إذا كنت تهدد ، فلست الشخص المقصود .

ثم قال أحد زملاء ميرزا أسد الله وقد وجد الجرأة :

-في هذا المجلس ، لم تحدث حتى الآن خيانة بالنسبة لأرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم .

ثم تدخل أحد الطلاب قائلاً :

- ما الفائدة ؟ من الذي سيسمعنا ؟

فقال ميرزا أسد الله : إن كان ثم دعوى شرعية أو عرفية ، فنحن جميعاً مستعدون للخدمة .

فقال نفس الشيخ الذي تحدث أولاً : سيدى العزيز ، لقد قطعوا كراية طلاب المدارس منذ أسبوع ، رجعنا إلى ناظر الوقف فقال : لقد خلعت ، وهؤلاء الحضرات بدورهم لا خبر عندهم عن كلمة الحق .. سيدى العزيز أنت وأنت حافظ بيضة الإسلام ، وقد جلست في مكان حاكم الشرع ، ينبغي أن نخبرنا ماذا علينا أن نفعل .. إنهم في سبيلهم إلى إضعاف حوزة الإسلام !!

إلتفت ميرزا أسد الله إلى واحد من زملائه الثلاثة ، وكان في زى الطلاب وسأله :

– أتعلم من هو ناظر أوقاف المدارس العلمية ؟

– ميزان الشريعة . !!

خرج هذا الإسم في وقت واحد من ثلاثة أفواه ، فهز ميرزا أسد الله رأسه وقال :

– ومتى خُلع ؟ وكيف ؟ مبلغ علمي أنه لم يُعزل .

قال أحد الطلاب :

– على كل حال ، أنتم تعلمون هذا أفضل منا يا ميرزا ، وما نعلمه نحن أن كراية الطلاب قد قطعت .

فكر ميرزا أسد الله قليلا ثم قال :

– أنا لا أظن ان الأمر هكذا ، ينبغي أن أحقق في الأمر ، وحتى يصل التحقيق إلى نتيجة ، أتعهد أن تصل إلى الطلاب كرايتهم من خزانة القلعة .

فقال أحد الطلاب : إذا وجدت الخزانة ، فهي حتما مفتصة ، حتما أخذها أولئك الحضرات بالعدوان .

فقال زميل آخر من زملاء ميرزا أسد الله مجيبا :

– أنتم وكل منكم أخذ في أكل خبز الإسلام أربعين أو خمسين سنة ، لابد وأنكم تعرفون كيف تجعلون المال المغتصب حلالا .. وإذن هل هو أسوأ من أكل الميتة ؟

وقال زميل آخر من زملاء ميرزا أسد الله لم يكن في لباس الملات :

- حقيقة ؟ إلى متى تريدون أن تظلوا طلبية ؟ ما شاء الله كل منكم في منزلة أبينا ، لماذا لا تذهبون وتساعدون الناس ؟

وقال ميرزا أسد الله :

- هل تؤمنون في الواقع بأن ما في حوزة هؤلاء الحضرات موضع ريبة أكثر من الأموال التي كانت في حوزة الحكومة ؟ طوال هذه الفترة لم يؤخذ مليم من أحد غصبا ، ولم تذهب دابة إلى السخرة .

فقال ذلك الشيخ الذي تحدث أولا وبصوت مرتعش :

- حسنا جدا يا سيدى العزيز ، قبلنا ، لكن القضية الأساسية هنا ، أنه مع هذه التكايا وألاعيب الدراويش والمحافل السرية ، لنا الآن أربعة شهور لم تصل إلى آذان الناس خلالها كلمة حق من فوق منبر ، إنهم لا يتركون الناس يستمعون إلينا .

وواصل أحد الطلاب قائلا :

- كل المساجد صارت خرابات ، وكل المنابر خلت .. بماذا تردون على النبي غدا ؟

قال ميرزا أسد الله :

- وهذا أيضا ليس من شغلنا ، ثم ما دمتم قد قنعتكم بركن من المدرسة ، ما انتظاركم أن يأتى الناس ليستمعوا إليكم ؟ ما نعلمه أن الكلام الحق ، لا يلزم أن يقال بالطبل والزمر ...

فقاطع أحد الطلاب ميرزا قائلاً :

- لا جدال . خاصة في الوقت الذي تكون فيه كل الطبول والمزامير
تحت سيطرة عمال الشيطان !!

فقال زميل ميرزا أسد الله الذي كان في زى الملات :

- لنر . هل يعني هذا أننا هنا عمال الشيطان .

- بل أسوأ ، أنتم عمال للشيطان بلا أجر ولا منة . !!

ولم يُعرف من قال هذا من الطلاب ، وبسماعه ، ارتفعت أصوات
زملاء ميرزا أسد الله ، واعترضوا جميعاً وقد تصاعدت الدماء إلى
وجوههم ، وبمجرد أن رأى ممثلو الطلاب أن الجو غير مساعد ، قنعوا
بما حصلوا عليه ، ونهضوا ، وأخذوا بقية الجماعة الموجودة في
التكية معهم .

وهكذا يا أحبائي ، كان وضع المدينة يجري بهذه الأمور ، وكان
عملاء الحكومة السريون يختلقون كل يوم متاعب جديدة ، والناس
بدورهم كانوا قد يؤسوا تماماً منذ انفجار المدافع ، وعند سماعهم
لخبر واحد عن هذه المتاعب ، التي كانت عندما تصل إلى مسامع أحد
يصبح الغراب فيها أربعين غراباً ، كانوا يزدادون خوفاً . وعلى كل
حال بينما كانت أربعينية الشتاء الكبرى^(١) في سبيلها إلى
النهاية ، وفي آخر الشهر الرابع لحكومة الدراويش ، وكان يوم

(١) الأربعون يوماً الأولى من فصل الشتاء في التقويم الإيراني . المترجمة .

جمعة ، دعا حسن أقا بن حاجي ممرضا كاتبينا مع أسرتيهما إلى
إلى الغداء في نفس ذلك المنزل الذي كان قريبا من سوق العلافين ،
وكنا مرة قد أخذنا ميرزا أسد الله إلى بابه المغلق لتشتم الأخبار ثم
أعدناه ، ولم يظهر كاتبانا -الذان لم يعودا بعد يعرفان جمعة من سبت
، وكان دائما مشغولين بالعمل- بهذه السرعة ، لكن درخشنده هانم
وزرين تاج هانم وصلتتا عند الظهر ومعهما حميدة وحميد .

كان منزلا واسعا ، وكان بابه مفتوحا ، وعبروا الممر الذي
كان يفضي إلى حظيرة ، ومن بعده كان هناك فناء خارجي - لم يكن
للنساء دخل به ، وذهبوا إلى الحرم الذي كان قد بني فيه حديثا دورة
مياه منفصلة وحمام منفصل بل ومكان مخصص للرياضة . كان
النساء يخرجن من كل حجرة ويدخلن ، وترك الأطفال المتقاربون في
السن كرات الثلج ، ووقفوا يشاهدون القادمين حديثا . كان الضيوف
يتقدمون ببطء ، ولا يعلمون أى حجرة يدخلون ، قالت درخشنده هانم :

- ما شاء الله يا أختي .. ماذا يفعل كل هؤلاء النساء والأطفال في
هذا المنزل ؟

قالت زرين تاج هانم التي كانت تسير كتفا بكتف مع درخشنده
هانم :

- وماذا رأيت منها يا أختي ؟ لم يكن منزل الحاج ممرضا منزلا ،
كان تكية ، يسع من البشر ما يسعه خان ، كل أصناف البشر كانوا
يدخلونه ، ويقيمون أسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر .

ونفضحه ، في النهاية ينبغي أن نمسك أنفسنا عن العنف لكن إلى حدود ...

قال ميرزا أسد الله : تظنون أن هذه التهديدات تؤثر فيه ؟ إن شبه الإنسان هذا سوف يوزع كل مخازنه على التجار من شركائه في الاحتكار .

قال حسن آقا : لا فائدة في هذا ، فأكثر الحمالين في المدينة من أهل الحق ، وسوف نعلم بهذا على الفور .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزي أنا أصلاً لا أفهم من أجل ماذا كل هذا الكلام والنقاش ؟ إذا كان من أجل تقدير مؤن المدينة ، فكل المخازن الآن ممثلة ، والشائعة انطلقت بين الناس أصلاً بلا داع ، وفي النهاية فإنه في نفس الوقت الذي غادر فيه جيش الحكومة المدينة ، فإن أهل الحق هم الذين أمسكوا بزمامها .

قال ميرزا أسد الله : انظر يا جناب السيد ، لا يمكن أن يترك أمر تموين المدينة للحدس والتخمين .

قال حسن آقا : على كل حال ، أتوسل إليك يا سيد ، فليست لدى الجراءة على أن أتحدث مع الزعيم الأوحده عن هذه القضية ، فمنذ انفجار المدافع ، وقد اعتكف في خلوة أربعينية ولا يسمح لأحد بالدخول عليه .

قال ميرزا أسد الله :- هذا هو ما لم يحدث ، فأى ألم عالجته الاعتكاف في خلوة أربعينية ؟ ينبغي أن نرسل في استدعاء أربعة من

النحاسين الخبراء ونرى أس الخراب ، أنظر إلى المملكة ، كلها من أولها إلى آخرها كلها في خلوة أربعينية ورؤية الطالع ، أنتم والذين كانوا في هذا سواء ، كيف يكون الأمر يا جناب السيد أن تعتكف أنت أيضا في خلوة أربعينية من أجل توفير تموين المدينة .. هه ؟

قال حسن آقا : دعك من المزاح يا ميرزا ، فلا صبر لدى .

قال ميرزا أسد الله : أنا لا أمزح يا حسن آقا ، أريد أن تفهم ألا فرق هناك بينكم وبينهم

قال حسن آقا : كيف لا فرق هناك ، أنت تنظر إلى الأمور دائما نظرة تشاؤمية .

قال ميرزا أسد الله : هم أيضا حسبوا الطالع ، واعتكفوا في أربعينية ، واستخاروا المراسد ، وأنتم أيضا تعتكفون في عزلة أربعينية .. هم أخلوا الميدان وذهبوا وقبعوا الآن منتظرين حتى تتغير الأمور تلقائيا وفق هواهم ويعودون ، وأنتم أيضا قبعتم وانتظرتم حتى غادر جيش الحكومة المدينة ، وأنذاك ظهرتم ، وأنتم الآن قد جلستم منتظرين حتى يأتي سفراء أهل السنة ، ويعقدون معكم الصفقات بدلا من الحكومة ، ولم يحدث أن وقف أحد في قلب الأحداث مواجهها إياها ، حتى أنتم - مع كل هذا الإدعاء الذي لديكم .. انتهازيون ...

قال ميرزا عبد الزكي : إذن - يا عزيزي - ما الذي ينبغي فعله في رأيك ؟

قال ميرزا أسد الله ضائقا : لا تسألني أنا ما الذى ينبغي عمله الآن ؟ أى علم لي ؟ لماذا لا تذهبون فتسألون قادة القوم الذين يعتزلون أو يعتكفون في خلوة أربعينية إلى أن يصلهم خبرما ؟ كل طفل يعلم أن لكل داء دواء ، على سبيل المثال : قضية التموين ، من الغد أرسلوا كل أهل الحق داخل المدينة لعمل تعداد ، واجردوا كل ما في مخازن الحكومة وسجلوه ، وسجلوا على الورق كم يوجد من المحتكرين ، هذا أمر لا مرأى فيه .

قال حسن آقا : في ذلك الوقت ، هل أنت جاهز للتوقيع على قرارات مصادرة أموال المحتكرين ؟

قال ميرزا أسد الله : - يعنى ماذا ؟ تريد أن تدفعنى لإصدار حكم ؟ لا يحتاج الأمر بعد إلى حكمي ، فأنت نفسك تعلم كيف تجعل الناس يقتحمون مخزن فلان المحتكر .

قال حسن آقا : أردت أن أفهمك أن الحكم ليس بالأمر السهل .

قال ميرزا أسد الله : هذا ما كنت أقوله ، منذ اليوم الأول الذى دق فيه هوس الحكم في رؤوسكم ، والآن عجزتم فيه ، بلا خطة قط ، ومن هنا فأنا لا أرى فرقا بين هذه الحكومة وتلك الحكومة ، نحن في الأصل لا نعيش حياة بشرية ، بل نحيا تماما كالنبات ، مثل شجرة ، عندما يأتى الشتاء ويلقي بأوراقها تظل في انتظار الربيع حتى تنبت أوراق أخرى ، ثم تظل في انتظار الصيف حتى تثمر ، ثم انتظار المطر ، ثم انتظار السماد .. وهلم جرا ، كلها في انتظار التطورات الطبيعية ،

تطورات من خارجها ، وهم كانوا على هذا النسق ، وأنتم أيضا ، غافلين عن أنه إذا بقيت كذلك في انتظار التطورات الخارجية ، سيهمي السيل ، أو تهب عاصفة حارة دفعة واحدة ، حتى يحدث القحط مرة واحدة .

قطع ميرزا عبد الزكي كلام ميرزا أسد الله وقال : عزيزي ، مرة ثانية بالغت ، إذن فكل هذه المدافع التي يصبونها ليست استعدادا .

قال ميرزا أسد الله : ولم لا ؟ هي استعداد ، لكنها استعداد للمذبحة أى للموت ، لا للحياة ، وهؤلاء الحضرات كان من المقرر أن يهيئوا امكانات أكثر لحياة الناس ، وقد عجزوا ، فذهب زعيمهم واعتكف في خلوة أربعينية . لماذا ؟ لأنه لم يكن ينتظر هذه التحريضات ، أى لم يكن مستعدا لمقابلة تطورات خارجية ، هذا الاعتكاف في أربعينية عمل أولئك الذين يظنون أن التطورات الخارجية إما أنها رحمة إلهية أو بلاء سماوي ، وهذا تماما ديدن بداية الخليقة .

قال حسن آقا : ميرزا ، إنك تستطيع فحسب أن تقف على حافة الحفرة .

قال ميرزا أسد الله : أهذه إذن هي حافة الحفرة ؟ أنا الذي كنت أخاف من الحكم ومن القضاء مضطر كل يوم إلى إصدار مائة حكم ، ثم تريد مني أيضا أن أحكم بمصادرة أموال الناس .

قال حسن آقا : إذن فأنت ترى أن يموت كل الناس من الجوع ، حتى يقوم المحتكرون بعملهم .

قال ميرزا أسد الله : إذا مات كل سكان المدينة ، لن يستطيع المحتكر أن يبيع بضاعته بضعف السعر ، المشكلة هي : ماذا نفعل حتى يستريح الناس ، وفي نفس الوقت لا يحتاج أحد إلى الإحتكار ؟ وهذا الأمر يريد خطبة ، كل أولئك الذين لوثوا الحكم بدم الناس ، كانت لديهم نفس هذه المشكلات ، أى فوجئوا بأن فلانا من الناس أو حادثة كذا ليست وفق هواهم ، فدهمهم الخوف ، وتساءلوا : ماذا نفعل ؟ وماذا علينا ألا نفعل ؟ فلنواجه هذا مثل أى إنسان خائف وبأى شكل : نصادر مال فلان ، نعدم فلانا ، نقمع عائلة كذا ، وهم في غفلة عن أن الجذر لا يزال تحت الماء ، وعندما تقمع الاحتكار ، يظهر وجع رأس جديد ، ينبغي أن نرى من البداية : لماذا يحتكر فلان أصلا ؟

قال حسن آقا : لأر ، أكان ثمة فرصة لهذه الأمور ؟

قال ميرزا أسد الله : قلت من البداية أنكم لا تفتأون تتشدقون بأن الأمور تجرى تلقائيا ، كنت أعلم أنك مادمتم قد صرت حاكما ، فلن تستطيع ثانية أن تتظاهر بالتقوى المبالغ فيها ، كنت أعلم أنك لابد وأن تغمض عينيك ، وتصدر الأحكام ، وتلقي بالرعب في القلوب ، وتخوف حتى لا تخاف . كنت من البداية معارضا لكل نوع من الحكومات ، أنا الذى قلت أن كل أمر من أمور الدنيا إذا حل عرفيا فقد حل - وإلا بقي بلا حل إلى يوم القيامة ، هذا لأن نطفة كل حكومة قد عقدت في فترة الحكومة التي قبلها .

وبينما كان ميرزا أسد الله يعطي الكلام حقه على هذا النحو ، إذ

جاءوا بالغذاء ، أرز مقرمش في كل مغرفة قطعة صغيرة تائهة من اللحم المدقوق مع خبز غليظ ولب جوز مدقوق وجبن قريبي ، فانتهى النقاش ، واعتذر حسن أقا بأنه لم يستطع الحصول على لحم ، وقال ميرزا أسد الله أن هذه الأيام ليست أيام الإعتذار ، ثم قرروا أن يتم تعداد المدينة ، ومن الغد يذهب ميرزا عبد الزكي مع كل الكتبة الذين تحت رئاسته ويسيروا في المدينة لإجراء التعداد وتحديد التموين ، وقبل كل شيء أن يحدد تموينا معيننا لحريم القلعة الذين احتجوا بالشكوى والنواح والاستغاثة ، ثم لطلاب المدارس ، ثم للدراويش أنفسهم الذين كانوا قد ترفهوا منذ فترة وجيزة فحسب ، ومن ثم أخذوا يسرفون إسرافا شديدا .

في اليوم الثاني للتعداد سرت شائعة بين الناس بأن هذا التعداد مجرد مظهر وأن الدراويش أخذون في الخفاء يمهدون للتجنيد الإجباري ، ولأن كل إنسان لم ير ضررا في أن يحتاط ، فقد أخفى أهل المدينة أولادهم الشبان ، بل ولم يقدموا قائمة بأسمائهم في الأصل ، وأقسموا بأغلظ الأيمان أنهم إما ذهبوا مع الجيش منذ فترة ، وإما ماتوا ، وأخذ ميرزا عبد الزكي ورفاقه يناقشون الأمر في رؤوسهم ، أو ينظرون في الدفاتر والسجلات ، ربما استطاعوا بالحدس والتخمين أن يقدروا العدد الحقيقي للأهالي ، فعلاوة على أزمة اللحم حدثت أيضا أزمة في الفحم والخطب والأعلاف ، ولم يكن عند أحد من العلافين في ذلك الوقت مقدار مثقال من الفحم أو الخطب أو الحبوب ، ولم يكن أحد القصابين يجرؤ على فتح دكانه ، وكل ما كان يصل من خطب وفحم كان يمضي

مباشرة إلى أكوار القلعة ، أما أهالي القرى فمنذ فترة طويلة ، كانوا قد ترددوا في التعامل مع الدراويش ، واضطر كل من لديه حمار أو حصان أن يذبحه في المنزل ويفرمه ، ويحشوه به القرب ، لأن الناس الذين كانوا قد عجزوا عن تدبير اللحم والخبز لأنفسهم لم يكن لديهم الصبر بعد على أن يفكروا في علف حمار الأسرة الأعرج ، وكان أن خلت أغلب حظائر البيوت ، ويعتقد رواة الأخبار ، أن عادة إنشاء حظيرة في البيت قد انتهت أصلاً منذ ذلك الوقت ، وأصبحت البيوت أكثر اتساعاً .

يا أعزاء القلب ، وهكذا أخذت الحوادث السيئة تتوالى وتتوالى في أثر بعضها البعض ، وأخذ الناس يشدون الأحزمة على البطون يوماً بعد يوم ، ويصبحون أكثر يأساً وصيقاً حتى أواخر الشهر الخامس لحكومة الدراويش ، إذ حدث ثانية صباح ذات يوم ، أن انطلق كل الأهالي من رجال ونساء من بيوتهم إلى الخارج ، تماماً كالنمل الذي صب ماءً في جحره وأحس بالخطر ، كانوا خائفين مرعوبين ، انهمروا في البداية فرادى ، ثم جماعة جماعة ، ثم حياً بعد حي ، خرجوا من البيوت وتقاطروا في أثر بعضهم ، ثم تحيروا ، ووقعوا في حيص بيص ، لم تكن أيديهم تصل إلى شيء ، ولم يكونوا حتى ذلك اليوم قد رأوا سوءاً من الدراويش ، فاضطروا إلى الهجوم على مزارع التوت التابعة للأوقاف في أطراف المدينة ، واقتلعوا الأشجار العارية من الأوراق والثمار والتي كانت قد غاصت حتى أواسطها في الثلوج بضربات الطير والمعاول ، اقتلعوها وقطعوها وحملوها إلى منازلهم ، لكن السوء في الأمر ، وربما كان بتحريض من عملاء الحكومة السريين الذين كانوا

يزدادون قوة يوما بعد يوم ، أن قتل في تلك المعركة إثنان من الدراويش ،
لأنهما لم يكونا قد وافقا على مرافقة الناس ، أو امتنعا عن إقراض
طبرزيئاتهما لأحد أو تمازحا مع أحد أو وقفا يمنعان عملا من الأعمال ،
و بمجرد أن وصل الخبر إلى القلعة والتكايا حتى تقاطر الدراويش
جميعهم مسلحين غاضبين إلى داخل المدينة ، وعادت الأوضاع إلى
حالتها الأولى : الناس في ناحية ، والدراويش في ناحية ، تماما
كالحراس والعسس والدرك أيام الحكومة ، والذين كان الناس يخافون
منهم ويتجنبونهم ، ومن ذلك الوقت فصاعدا ، لم يعد أحد يجروء على
الخروج من منزله وحيدا وبلا سلاح ، لا الناس ولا الدراويش . وبدأ
الدراويش - الذين لم يكونوا قد أظهروا عنفا حتى ذلك الوقت - في
استعراض قوتهم بالتدريج . في البداية بضرب الناس الذين كانوا
يزدحمون أمام المخازن ، ثم صفع أولئك الذين كانوا يحضرونهم إلى
ديوان القضاء على أقفيتهم ، حتى تطور الأمر وقاموا ذات صباح
مشمس ودافئ بشنق ثلاثة من محتكرى المدينة أمام مخازنهم السرية
دون إذن من ميرزا أسد الله .

يا أحياء القلب : بمجرد أن شاع خبر شنق هؤلاء التجار الثلاثة
داخل المدينة ، حتى أغلق السوق ، وسرت شائعة بأن أحد التجار لن
يشترى بعد البضائع التي يصنعها الدراويش ، وأن أحد الصرافين لن
يقبل بعد حوالاتهم وأذوناتهم وصكوكهم . حقيقة أنه في اليوم التالي
ذهب زعماء السوق إلى القلعة ، ووعدوا بفتح السوق ثانية بشرط أن
تُنزل الجثث فورا من على المشانق وتدفن . وكان هذا ما فعلوه ،

وأخذوا الجثث المتخشبة المتجمدة من الدراويش ، وشيعوها إلى المقابر بالتهليل والتكبير والصلوات التي كان صراخ عملاء الحكومة السريين وهتافهم يجعلونها مائة ضعف ما هي عليه .. لكن السيف كان قد سبق العزل ، ووقف أهل المدينة والدراويش في مواجهة كل الآخر ، وقفة لا رد لها .

السيء في الأمر ، أنه تماما عندما كانت الجثث تشيع إلى الجبانة بالأعلام والطبول والرايات ، وصل رسول أهل السنة مع الحراس والحجاب إلى ما خلف البوابة، ومهما حاول الدراويش إخفاء الأمر ، لم يستطيعوا ، فقد كان صف المشيعين يتحرك ببطء ، وهتاف " لا إله إلا الله .. والله كريم " يصل إلى الفلك ، وكان وخز البرد خلف بوابة المدينة قد بلغ درجة بحيث لم تعد هناك حيلة ، وتواجه رسل أهل السنة مع جماعة المشيعين بينما كانوا يخرجون من البوابة نحو الجبانة .

حقيقة أنه بشنق هؤلاء التجار الثلاثة ، حسب المحتكرون الآخرون حسابهم ، أو على الأقل ، أتيح ذلك القدر الذي كان موجودا في ثلاثة مخازن كبيرة للمؤن أمام الناس ، ونال أهل المدينة حظا منها ، وقل الخوف من المجاعة ، لكن المياه التي جرت في النهر لم تعد قط إلى مجاريها ، ووقف الدراويش وأهل المدينة مرة ثانية كل في وجه الآخر ، وكان العملاء السريون يوسعون في نطاق هذا الخلاف ، وحقيقة أن رواية الأخبار لم تكن لديهم الفرصة لحك رؤوسهم خلال ذلك الصخب وتلك الضجة ، ولم يستطيعوا على الأقل أن يعلموا شيئا عما دار بين سفير

أهل السنة وتراب تركش دوز ، ولكن استنباطا من كلام حسن آقا الذى كان ميرزا أسد الله قد ذهب إليه غداة ذلك اليوم معاتبا ، يمكن الحدس أن المحادثات بين رسول أهل السنة وتراب تركش دوز ، لم تجر بشكل ودى .

أما عتاب ميرزا أسد الله ، فكان فحواه أنه غداة شنق المحتكرين الثلاثة ، استطاع بمشقة شديدة أن يجد حسن آقا ، وأخذه إلى زاوية إحدى التكايا ، وبادره قائلا وهو لا يزال واقفا :

- رأيت يا رفيق ، في النهاية تلوّثت أيديكم بالدم .

وأجاب حسن آقا غاضبا مهتاجا :

. - أنت أيضا تلوم ، لقد تخلينا عن أغلب مبادئنا حتى لا نسفك دما ، تذكر قضية النسوة ، أو قضية طلاب المدارس وإعفاء أملاك ميزان الشريعة ، لكن لم يجف كفنا هذين الدرويشين بعد !

فقال ميرزا أسد الله : إذن فقد انتقموا ؟ هـه ؟ أليس كذلك ؟

وقال حسن آقا : إحسبها هكذا ، والزعيم الأوحى بمجرد أن أصدر الأمر بهذا ، أغمى عليه !!

وقال ميرزا أسد الله : لا بد أن رسول أهل السنة قد وضع الطين بالقش تحت أنفه ليفيق !!

وقال حسن آقا الذى كان غضبه قد انفجر تماما :

- أنظر يا ميرزا ، عندما تتكلم أنت بهذه اللهجة ، ماذا تنتظر

آخرا من رسول أهل السنة ؟ ميزان الشريعة وخانلرخان وكل العملاء السريين في المدينة يعملون ويحرضون الناس لحظة بعد لحظة وأنت تتحدث بهذا الشكل ؟! فليذهب رسول أهل السنة إلى الجحيم !!

وعلى هذا النحو ، كان أن فهم رواية الأخبار أنه لم يتوصل إلى نتيجة ما من رسول أهل السنة ، لأنه في نفس ذلك اليوم سرت شائعة أن قبلة العالم قد تصالح مع نفس حكومة أهل السنة ، وسلم قطعة من المملكة أخذ في مقابلها أربعمئة مدفع بعيدة المدى ، وعندما تتكسر حدة البرد ، سوف يتحرك نحو المدينة .

على أى ، عندما عاد الرسول ، لم يحدث شيء ، وفتح سوق المدينة ، لكن الصرافين كانوا كلقمة من الخبز ابتلعتهما حلق الكلاب المشردة في المدينة ، لم يكتفوا بعدم فتح دكاكينهم ، لكنهم هم أنفسهم اختفوا ، ولا جدال أنه من ميزات عمل الدراويش أنهم لم يكونوا يحتاجون كثيرا إلى النقود السائلة ، فلا هم كانوا يدفعون أجورا للدراويش ، ولا كانوا يحتاجون إلى النقود للشراء من السوق . كان كافيا أن يقوموا بمقايضة بضاعة ببضاعة في تعاملهم مع السوق ، لكن منذ أن أخذ القرويون لا يعترفون بحالات الدراويش وأذوناتهم ، ولا يعطون في مقابلها القمح والشعير والأغنام ، اشتد الأمر ، والآن وقد انعدم الصرافون هم أيضا ، فقد وقعوا في حيص بيص ، وصبروا يومين أو ثلاثة فأسبوع حتى خمسة عشر يوما ، ولا خبر هناك عن الصرافين ، ومن جهة أخرى فمخازن المدينة آخذة في الخلو واحدا بعد الآخر ، وينبغي التفكير في حل ما ، وعندما كنت تذهب إلى أحد الصرافين ، إما

أنه أصيب بذات الجنب وسقط طريق الفراش ، أو سافر ، وفي النهاية ، في أول اليوم السادس عشر ، تقاطر الدراويش والبنادق على أكتافهم ، وكسروا أبواب دكاكين الصرافين واحدا بعد الآخر ، وحطموا خزائنهم وأدراجهم ، وعندما لم يحصلوا على شيء ، تقاطروا على دورهم ، وأخذوا سبعين شخصا إلى السجن وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم ، وفرضوا على كل منهم غرامة تبلغ ألفي عملة ذهبية ، وكان من حسن حظ الدراويش أن التجار أنفسهم لم يكونوا راضين عن أى واحد من هؤلاء الصرافين ، ذلك أن كلا منهم كان قد جمع ثروة طائلة عن طريق الربا ، وكانوا موضع حسد وبغض من التجار ، وحقيقة أنه لهذا السبب ، لم يرتفع صوت من السوق ، وظلت أوضاع المدينة هادئة لفترة ما ، لكن من أسف أن الدراويش اضطروا إلى ترميم مبنى السجن وأبوابه من جديد ، أى نفس الأبواب والجدران التى كانوا هم أنفسهم قد خربوها ، وأخذوا يسيرون خطوة بخطوة في نفس الطريق الذى كانت الحكومة تسير فيه ، أى أنهم من اليوم التالي فرضوا المكوس على البوابات ، ووضعوا حركات الناس تحت الرقابة ، وفرضوا ضرائب على دخول الحانات والغرز ، وخفضوا كراية طلاب المدارس وحريم القلعة إلى النصف ، وكذلك كراية دار المجذومين ودار المجانين . وعندما تطور الأمر إلى هذا الحد ، اندس العملاء السريون بين الناس وأطلقوا شائعة قائلين : " يا قوم ، مالكم تجلسون والدراويش من أجل التوفير في المؤن يريدون أن يخرجوا كل المجذومين والمجانين بحيث يتقاطروا على المدينة " ، وتقاطر الناس - الذين كانوا يحرضون لأقل خبر - ذات غروب بزعامة

العملاء السريين ، وبضجة شديدة ، وبينما كانوا يتناقشون فيما يجب عليهم أن يفعلوا أو لا يفعلوا ، لم يصر معلوما قط داخل تلك الضجة من بالضبط تفوه بهذه العبارة : " لنذهب فلنشعل النار في بيت المجذومين " ، فخرج الناس مهاجمين بضجة وصخب نحو دار المجذومين ، وبينما هم يمشون ويطوفون بالحواري ويسيرون خلف المشاعل ، إذ وصل الحكيمباشي خال ميرزا أسد الله لاهثا متصبيا عرقا متوكئا على عصاه إلى تكية السروجية ، فلأن الأمر كان متعلقا بعمله ، عرف أسرع من الجميع ، فعطل عيادته ، وانطلق في طريقه .

وكان ميرزا أسد الله ورفاقه لا يزالون مشغولين بصراخ ورثة أولئك المحتكرين الثلاثة الذين شنقوا إذ دخل خان دايبى إلى المهجع قائلا :

- أيها الولد الأحق ، أوباش المدينة ذاهبون لإضرام النار في بيت المجذومين ، وأنت مشغول هكذا في الإرث والميراث ؟ في ألف داهية كل وارث وموروث إن لم تذهب للوقوف أمامهم ، أو إن كان لك حق في رقابهم ، انهض ، ولنمض لنتدبر أمور هؤلاء المساكين .

فكان أن نهض ميرزا أسد الله متعجلا ، وسار كل الدراويش المشتغلين في ديوان القضاء في أثره ، ودبروا حمار لخان دايبى بشكل أو بآخر ، ووصلوا من الحارات الخلفية إلى دار المجذومين أسرع من أوباش المدينة ، واصطف الدراويش ، وحشوا البنادق ، وجلسوا على ركبهم في وضع الاستعداد لإطلاق النار ، إذ وصلت جماعة الأوباش والمشاعل في أيديها زاحفة بضجة وصخب .

كانت الجماعة تتقدم على هذا النحو ، إذ أصدر ميرزا أسد الله نفسه الأمر بإطلاق أول رصاصه ، وبمحض سماع الأمر ، حرك خمسة من الدراويش الزناد ، وارتفع صوت انفجار ، وانطلقت خمسة رصاصات في الهواء ، ووقفت الجماعة على بعد مائة قدم مثل قطع يصل فجأة إلى حافة منحدر ، وفي خلال هذه الضجة ، كانت جماعة من مائة درويش قد وصلت لمساعدة ميرزا أسد الله وجماعته ، ووصلوا وهم يعدون من الحارات المجاورة ، وحاصروا جماعة الأوباش بينهم ، ولا أطيل عليكم ، انطلق الرصاص ، وانهمرت الحجارة ، وتحطم جبين خان داوي ، ونفق حماره ، وقتل إثنان من الدراويش وخمسة من الأوباش ، وقبض على خمسين شخص حتى استقرت الأوضاع ، ونجا المجذومون من الاحتراق في النار ، وأوصل ميرزا أسد الله خان داوي إلى منزله ، وما إن أوصله ، وعاد إلى داره متعبا موشكا على الهلاك حتى دق الباب ودخل حسن آقا .

– كيف أنت يا ميرزا ؟ سمعت أنك نفسك الذي أصدرت الأمر .

قال ميرزا أسد الله : في النهاية تعلم أن الرجل الشيخ لم تعد له قوة حتى على ركوب الحمار ، ثم إنهم كانوا موشكين على الهجوم على دار المجذومين لإحراقها ، الأمر كان في منتهى الجدية .

قال حسن آقا : نعم يا ميرزا ، دائما ما يجرى الأمر هكذا ، بحيث ينسى المرء التساؤل .

ثم أعطاه شهادة التقدير الثانية من تراب تركش دوز ، وأمر بأن

تضاعف كراية دار الشفاء ، ومضى ، ولم يتناول ميرزا أسد الله طعام عشائه ، وظل تلك الليلة حتى الصباح ساهرا يفكر ، ظل يفكر حتى نفذ الزيت من سراجة ، وهو جالس أسفل الكرسي ، عندما فقد وعيه .

يا أعزاء القلب .. استمر تربيع النحسين الذي كان مقدرًا لثلاثة أيام ، استمر ستة شهور ، ولم تكن الأرض قد تنفست بالكاد ، وبينما كان الثلج يذوب في الأحواض ، إذ سرت شائعة صباح ذات يوم بأن جيش الحكومة قد تحرك ، وأنه آت بسرعة شديدة ، والآن فكل ما كان يدور على الألسنة حول اتفاق قبلة العالم والدولة السننية الجارة كان كالآتي : الأربعمئة مدفع صارت أربعة آلاف ، وولاية من المملكة صارت نصف المملكة ، وكل المدفعية في الجيش صاروا من أهل السنة ، وهم قادمون للقصاص لدماء كل أهل السنة التي كانت قد أريقَت في تلك السنوات ولحصد الشيعة حصداً بالمدافع ، وتماما عندما انتشرت روائح الربيع داخل أكثر حجرات المدينة بعدا ، انتشر خبر حركة جيش الحكومة ، بل اختلقت جماعة أن الدراويش أنفسهم قد تعبوا من الحكم ، وقدموا عريضة " استسلام فحواها جعلت فداك " إلى قبلة العالم ، مقسمين عليه بأغلظ الأيمان أن يعود " لتربية العجل الذي ولد له : " ولا جدال أن الجزء الأخير كان مجرد مزحة ، لكن أول نتيجة لحركة الجيش أن ازدحمت دكاكين الوشامين تماما كالمخابز ، فكل من وشم على ظهر يده صورة الطبرزين ، كان يأتي وهو مستعد للتضحية برأسه في مقابل محو الوشم ، في تلك الأيام ضرب كثير من أهل المدينة ظهور أيديهم بالسيف أو بالإبر ، أو وضعوا عليها روح الخل أو

الزئبق أو الزرنيخ ، ولفوها بالضمادات . والخلاصة فعلوا أى أمر تظن
لكي يمحووا الوشم من على ظهور أيديهم ، ويبلغ الأمر أن كثيرا من
الرجال الذين وشموا صدورهم بصورة " بيجن ومنيجه " (١) أو الفتوات
الذين وشموا سواعدهم بصورة " رستم " بلحيته المزبوجة ورأس
الشیطان الأبيض ، بل وعجائز الفجر اللائي كن قد وشممن أسفل
حلوقهن بصور الحيات والعقارب والأفاعي ، كلهم تقاطروا على أبواب
دكاكين الوشامين لمحو الصور الموشومة ، ونسي القحط وانعدام الخبز
والطعام نسيانا تاما . حقيقة أن نوارا جديدا كان قد أطل من أشجار
التوت المخربة من أطراف المدينة ، وأن رائحة الربيع كانت قد أصابت
الناس ، وهدأت من حرصهم ، لكن المهم أن الإنسان عندما تكون
رأسه مشغولة لا يفكر ثانية في البطن وما تحت البطن ، وكانت رؤوس
سكان تلك المدينة في ذلك العصر والأوان في الواقع مشغولة ، لأن كلا
منهم كان قد أسقط في يده وهو يفكر عندما يصل جيش الحكومة ، كيف
يثبت أنه لم يتردد على الدراويش ، ولم تكن له معهم أدنى علاقة ، وماذا
يفعلون لكي ينقذوا مصادر رزقهم والقوت القليل الذي عندهم من
الخطر .

أما ما جرى بشأن الدراويش ، فاسمعوه .. عندما وصل الخبر ،
تقاطروا خارجين ، ولدة يوم استولوا على كل مداخل الخندق الموجود
حول المدينة ، وفيما عدا اثنين من ممراته الترابية التي كانتا تكونان

(١) بيجن ومنيجه إسمان لبطلی قصة حب إيرانية مشهورة . المترجمة .

جسرا إلى البوابتين الجنوبية والشرقية للمدينة ، خربوا بقية ممراته ، وجعلوا الخندق ممتدا ، وربطوا مجارى مياه الربيع بحفرة الخندق بحيث تمتلئ بالماء حتى صباح الغد ، وعندما اطمأن بالهم من هذه الناحية ، أخرجوا كل المدافع التي كانوا قد صنعوها وهم يهللون ويكبرون ، إلى خارج برج المدينة وسورها ، وحول المدينة مسافة بمسافة ، نصبوا مدفعين خلف ساتر فوق الأرض ، وإلى كل مدفع ، وضعوا خمسة من الدراويش المدفعجية ، وأخذوا الجياد والبغال التي تجر العربات وتركوها ترعى داخل أشجار التوت ، كما أرسلوا خمسة من مدافعهم القديمة إلى الجبل الواقع جنوب المدينة ، واستولوا على الممر الذى يجب أن يعبره جيش الحكومة لكي يصل إلى المدينة .

أما ما كان من أمر كاتبينا ، فقد كانا مشغولين بعمليهما بحيث لم تكن لديهما الفرصة في الأصل للتفكير في أنه من الممكن أن تنقلب الأوضاع ، لكن في غروب نفس ذلك اليوم الذى انتشر فيه خبر عودة الجيش ، أرسل خانلرخان أى رئيس قيمي الحرم إلى ميرزا عبد الزكي داعيا له أن يطل على الحرم أطلالة ، ومن قبل رأيتم أن مثل هذا الأمر كان يجرى ، وأيضا ذهب ميرزا عبد الزكي ظنا منه أن مشكلة جديدة قد حدثت في الحرم وتبادلا التحيات ، وجلسا ، وقال خانلرخان دون أن يدخل في مقدمات :

– إذا وصل جيش الحكومة ، ماذا ستفعل يا سيد ؟

فقال ميرزا عبد الزكي : نفس ما سيفعله أهل الحق كلهم يا عزيزى .

قال خانلرخان :- وإن ألقوا بهم كاهن في قزان ماء مغلي ، فكيف يكون الحال ؟

قال ميرزا عبد الزكي : ليس دمي أغلى من دماء الآخرين يا عزيزي .
قال خانلرخان : إذن فأنت في الواقع موضع سر يا جناب السيد ؟
هذا ما لم يكن يتأتى منك .

قال ميرزا عبد الزكي : ليس في الأمر أمانة سر ، لكن كل شك وقذى يصلح لأمر ما ذات يوم .

قال خانلرخان : إذن فقد صدقت أيضا ؟ حسنا أن الوقت لا يسمح بأن تقوم بدعوتي .. كنت أريد أن أقول لك أن قبلة العالم قد أعد لنفسه حريما جديدا .

قال ميرزا عبد الزكي : حسنا يا عزيزي .. بالسلامة عليكم .

قال خانلرخان : لماذا لا تفهم يا جناب السيد ؟ يعني لم يعد لديه أدنى اهتمام بالحريم الموجود .

قال ميرزا عبد الزكي : هذا ما هو معلوم من البداية يا عزيزي ، وإلا لأخذهن معه .

قال خانلرخان : أنظر يا جناب السيد ، لا تتجاهل تجاهل العارف ، تعلم أن الجيش أت ، وأنه سيستولي على المدينة ، وحساب أهل الحق يا صاحب السعادة خالص تماما ، ولا يوجد إنسان قط يضحي بنفسه من أجل هباء لا جدوى منه ، الآن ، هل أنت مستعد أن تفكر ، وتعتقد صفقة قائمة على العقل والفكر ؟

قال ميرزا عبد الزكي : صفقة يا عزيزي ؟! أية صفقة ؟ أنا لا شيء
عندي حتى ...

وبقي كلامه في منتصفه لأنه كان قد فهم لتوه ماذا يريد خانلرخان ،
فكان أن سمر بصره حائرا ساهما في خانلرخان ، وظل صامتا .
وقال خانلرخان الذي كان قد حصل على الفرصة المناسبة :

- أنظر يا جناب السيد ، قبلي وقبلك كثيرون هم الذين وقفوا
لبعضهم البعض متواجهين من أجل امرأة ، لكن أحدا منهم لم يحلوا
المشكلة بهذا الهدوء والصفاء . هل تفهم ماذا أريد أن أقول ؟ أعلم
أن حياتك بالنسبة لك عزيزة ، لكنني قلت لعلك أيضا تهتم بأن تنقذ عددا
من أهل الحق . تمام ؟ إذا كان الأمر كذلك ، طلق واذهب . وأنا أشتري
أرواح أغلبكم .

ونظر ميرزا عبد الزكي ثانية لمدة طويلة إلى خانلرخان ساهما ، ثم
أراد أن يقول شيئا لكنه رأى أنه لا يتحمل أكثر ، فزمجر من تحت
أسنانه ، ونهض ، وخرج دون سلام ، مشى لفترة داخل فناء القلعة وهو
حائر في حيص بيص ، ثم امتطى حماره البندري سريعا ، ومضى في
ظلمة الليل نحو منزل ميرزا أسد الله . وإلى أن فتح الباب كان قد ربط
زمام الحمار في حلقة الباب ، ودلف إلى الداخل . كان ميرزا أسد الله
جالسا إلى المنقذ عندما دخل ميرزا عبد الزكي حائرا مضطربا . وفي
شتاء ذلك العام كان أهل المدينة قد رفعوا كراسيهم "مدافئهم التقليدية"
مبكرا ، لكن كل من كان ذا قدرة ، كان يضع منقذ نار في الليل ويتركه
في الحجرة . أرسل ميرزا أسد الله زرين تاج هانم مع ولديه إلى
الحجرة الأخرى وقال :

– ماذا حدث ثانية يا جناب السيد ؟

توقف ميرزا عبد الزكي على باب الحجرة وقال :

– مصيبة ، مصيبة يا عزيزي ، مصيبة كبرى ، ينبغي أن نفكر ،

فأنا في سبيلي إلى الجنون يا عزيزي .. الجنون !!

قال ميرزا أسد الله : لماذا لا تأتي الآن إلى جوار النار ؟ قل لي ،

لأر ماذا حدث .

سحب ميرزا عبد الزكي نفسه إلى جوار المنقذ ، وجلس في مواجهة

ميرزا أسد الله ، ونقل إليه ببطء شديد وباختصار شديد كل ما كان

قد سمعه من خانلرخان ثم قال :

– أترى يا عزيزي ؟ عدنا ثانية إلى اليوم الأول ، يقف الآن أمامي

هادئا ويقول كلمته ، اتقوا على هذه الحياة ، كنت أشتهي أن تكون إحدى

هذه البنادق في يدي يا عزيزي ، وأن أعرف كيف أطلقها في كرشه

الضخم ، محروق أبوه !!

وبعد عدة دقائق من الصمت قال ميرزا أسد الله الذي كان قد بقي

حائرا مندهشا بعد سماعه الحادثة :

– إذن فسوف يعود الجيش !! ألم تسأل أخرا كيف ..

وابتلع بقية كلامه ، وصاح ميرزا عبد الزكي قائلا :

– هل جنتت يا عزيزي ، إذا كانوا يريدون عقد صفقة مع عرضك ،

كيف تأتي وتسال كيف ؟

قال ميرزا أسد الله : عفوا يا جناب السيد ، أنا لا أفهم ماذا أقول ،
حقا ساءت الأمور جدا ، كيف نمضي إلى حسن آقا ؟ تريد الحقيقة ؟
الأمر أهم مني ومنك .. هذا الخنزير يمهد الطريق بهذا الشكل أمام أهل
الحق ، إنه لا يريد عقد صفقة معك أنت فحسب ، انهض ، لنر هل
نستطيع الليلة أن نجد عظماء القوم أو لا .

وانطلقا إلى الطريق ، وذهبا إلى حسن آقا ، وبعد ساعة أو
ساعتين من البحث ، وجدوا في النهاية تراب تركش دوز ، وهو يفتش
على المدفعية حول المدينة ، وفي ظلمة الليل إلى جوار الخندق ، طرحوا
الموضوع وهم يتمشون ، وعندما سمع تراب تركش دوز ما حدث وقف
وقال :

- يا له من رذل عجيب ، هل ظن أنهم سيكسبون اللعبة بهذه
البساطة ؟ وأضاف وكأنه يحدث نفسه :

- إذن ففي النهاية نفع وجود هذا الحريم . وقال بصوت عال :

- لو كانوا واثقين أنهم سيكسبون لما بادروا بهذا الشكل

وتدخل ميرزا عبد الزكي قائلا :

- يا عزيزي ، إذا حدث وانتصروا ، أيتبغي أن نفكر في أهل الحق
أو لا ؟

قال تراب : حقيقة ينبغي أن نفكر ، لكن لماذا يجب أن تخرج هذه
القرعة باسمك ؟ هه ؟ حتما تحب زوجتك جدا يا عزيزي السيد ؟

وبدلاً من ميرزا عبد الزكي الذي كان الخطاب موجهاً إليه ، قال
ميرزا أسد الله :

- وهل تراه هائماً في الصحراء ؟

وفي نفس هذه اللحظة ، وصل الأشخاص الأربعة إلى جوار
أحد السواتر الموجودة حول المدينة ، كانت نار صغيرة مشتعلة بحيث
كانت تعكس الظل المرتفع للمدفع طويلاً عالياً ضيخماً فوق سور
المدينة ، ونهض خمسة من الدراويش المدفعجية متعجلين من حول
منقدهم الصغير ، هاتفين : الله ، الله ، ثم طأطأوا رؤوسهم ، وهش لهم
تراب تركش دوز وبش ، وتحسس بيده هيك المدفع وقال :

- فعلاً مصيرنا جميعاً مرتبط بفوهات هذه المدافع ، لو كنا أهل
صفقات يا جناب السيد العزيز لما صنعنا المدافع ، اذهبوا فعلاً
واستريحوا ، فبعد يومين أو ثلاثة ، لن تجدوا فرصة للنوم .

وفي طريق العودة ، ظل كاتبانا وحسن أفا صامتين لفترة ، ثم قال
ميرزا عبد الزكي وكأنه يحدث نفسه :

- لا يا عزيزي ، الأمر الآن يختلف . ثم سكت ثانية .

وسأل ميرزا أسد الله : أي أمر هذا الذي يختلف يا جناب السيد ؟

قال ميرزا عبد الزكي : كل شيء يا عزيزي ، أنا ودرخشنده وأنت
وأهل الحق . الآن ، لست أنا فحسب خصم خانلرخان ، ودرخشنده
أيضاً لم يكن قد تبقى شيء حتى تفقد نفسها داخل سدى السجادة
ولحمتها .. أجل يا عزيزي .

وسكتوا ثانية ، ووصلوا إلى منازلهم متأخرين ، وظل كل منهم ساهرا حتى صباح اليوم التالي يفكر . في صباح اليوم التالي ذهبت زرين تاج هانم كدأبها كل يوم إلى عملها ، فمتد ضيافة منزل حسن آقا ، نصبت بمساعدة درخشنده هانم خمسة أنوال لنسج السجاد داخل منزل الحاج ممرضا ، والآن تذهب صباحا فحسب وتطل على ناسجي السجاد في منزل ميرزا عبد الزكي الذين كان لديهم درخشنده هانم مشرفة على العمل ، وبعدها كانت تذهب إلى منزل الحاج ممرضا وتقضي بقية اليوم هناك . وعندما وصلت زرين تاج هانم من الطريق ، نادت درخشنده هانم ، وأخذتها إلى ركن خال من المنزل وقالت :

— يا أخت ، يبدو أن الأمور تسوء مرة أخرى .

قالت درخشنده هانم : يا أختي ، هه ، مالي أنا ومالك أنت ، السجاد هو السجاد دائما له مشتريه .

قالت زرين تاج هانم : في النهاية يا أختي ، وإذا سببوا بعض المتاعب لزوجيننا ؟

قالت درخشنده هانم : هه ، هه ، أية متاعب ؟ أي حضان أو بغل حصلا عليه ؟ ، أي خير رأياه من الأعيب الدراويش ؟ وفي الأصل : هل يؤثر شيء في رأس السيد ؟ كلما أقول له دعك يا عزيزي من الأعيب الدراويش هذه ، هل كان هذا يؤثر فيه ؟ والآن ما هو المتوقع أن يحدث ؟

قالت زرين تاج هانم : لاشيء قط يا أختى ، إنني أتحدث على سبيل الإحتياط ، ثم إنه من الممكن أن يعود جيش الحكومة ، وعندما يعود الجيش ، لن ينظروا ليروا من الذى سلب جوادا أو بغلا ، مهما يكون يا أختى ، فسواء زوجي أو زوجك كلاهما ذهبا ليشدا من أزهرهم ، هذا ما لا يمكن إخفاؤه ، وهما لا يفكران في نفسيهما ، يقال أن الجيش عنده أربعمئة مدفع ، هل سمعت بهذا ؟

قالت درخشنده هانم : يا أخت ، ألم تضعي المدافع من صنع الدراويش في الحساب ؟ لكنك تقولين الحقيقة ، فهل نسيت تلك المدافع التي انفجرت ؟

قاطعتها زرين تاج هانم قائلة : لا يا أخت ، ليس الأمر هكذا ، لكن كل ما عند الدراويش مائة وعشرون مدفعا ، على كل حال ينبغي أن نفكر في اليوم الأسود .

فكرت درخشنده هانم قليلا ثم قالت : أتعلمين يا أخت ؟ جاء جناب السيد ليلة أمس ، وحدثني بمسألة خانلرخان ، ولا بد أن ميرزا حدثك عنها ، وقد فكرت في كل الإحتمالات ، المسكين لم ينام حتى الصباح ، تحدثنا في كل الأمور معا ، تعلمين يا أخت ، إذا كن النساء الأخريات مضطرات إلى تحمل حملهن تسعة أشهر على قلوبهن ، فأنا مصيرى في يدي ، لأنني أعلق حذلي في نول السجاد المنقوش ، وكلما أردت أفكه ، حقيقة أن كل سجاجيد العصر لا تساوى شعرة تسقط من رأس حميدة ، لكن لكل إنسان نصيبه ، ليجازيك الله أنت وميرزا بالخير ، لقد

فتحتما عيني ، قلت لجناب السيد أن يطمئن بالا ، فلست مستعدة حتى لإلقاء بصقة في وجه هذه القرية المنتفخة ، لكنني مستعدة لأجعل منه حمارا وأريه كيف يتأتى أمر من امرأة عاجزة .

نهضت زرين تاج هانم مسرعة وقبلت درخشنده هانم وقالت :

- كنت أعلم يا أخت ، القدم المريضة لا تعكف على عمل ما ..
حسنا لأر حقيقة ، تلك الصبية التي قطع الصوف يدها ، هل جاءت اليوم ؟
قالت درخشنده هانم : لا يا أخت ، أخاف أن تكون يدها قد عجزت
عن العمل ، وفي طريقك مرى على منزل الحكيمباشي وأخبريه - إن لم
يكن في الأمر تعب عليه أن يمر بها ويفحصها ، لا أدري لماذا لم يأت
نصف النساجين اليوم ؟

قالت زرين تاج هانم : ألا تدرين ؟ الناس يقرون من المدينة ، رأسك
منصرفٌ جدا إلى عملك يا أخت .

قالت درخشنده هانم : إذن فالموضوع جدى ، حسنا . والآن حتى
تقومين بإشرافك ، لآخذ ملاءتى علي ولأذهب لأطل على هذه القرية
المنتفخة .

وانتهى كلامهما عند هذا الحد ، وخرجتا معا من المنزل . ذهبت
درخشنده هانم إلى القلعة ، وزرين تاج هانم إلى منزل الحاج ممرضا .
كانت الحوارى مزدحمة بشكل لا يوصف ، كان أغلب الناس مشاة ،
والأقلية راكبة ، وكل ما كان لديهم قد حملوه على ظهورهم أو وضعه

فوق عربات يدوية ، ، والنساء والرجال والأطفال يمضون نحو البوابات . كانت الحرب الوشيكة والقحط الذي جعل الناس جميعا يستغيثون ، قد جعل الناس أكثر رعبا من المعتاد ، وكان أن كل من يملك قدرة ، يجمع حاجيات حياته ويغلق باب داره ويتركه في أمان الله ، ويأخذ بأيدي زوجته وأطفاله ويمضي في الطريق ، وكان الدراويش بدورهم يرجون هذا من الله ، فكلما كان سكان المدينة أقل ، لزمهم تموين أقل ، ثم أن أيديهم وأقدامهم تكون أكثر حرية ، وكانوا أن نادوا بأن الأطفال معفون ، لكن على كل رجل وامرأة بالغة أن يدفعوا على كل شخصين عملة ذهبية كرسوم للبوابة ، ويذهبوا في أمان الله ، وعلى هذا النحو كان أن أصبحت المدينة خالية تماما في بحر يومين ، ولم يتبق فيها أحد إلا عدد من الفقراء جدا أو الدراويش أنفسهم أو العملاء السريين للحكومة .

يا أعزاء القلب .. كان اليوم السابق لأربعاء الإحتفال^(١) ، وكانت الشمس لا تزال في رابعة النهار ، وكان أحاد من أهل المدينة لا يزال لديهم الوقت لإعداد طعامهم ، إذ ارتفعت من الناحية الجنوبية للمدينة أصوات مختنقة لمدافع ، ونسى الناس كل شيء ، وتقاطروا إلى أعلى الأسطح التي وجدوها إلى جوارهم ، ولم تكن الشمس قد غربت بعد ، عندما ارتفع من عمق الطريق غبار و تراب ، وظهر عشرون أو ثلاثون فارس ، ولم يكن الفرسان قد وصلوا خلف البوابة بعد ، إذ انتشرت في

(١) أربعاء الإحتفال هو الأربعاء الأخير من السنة الشمسية والذي يسبق عيد النوروز وتقام فيه احتفالات وطقوس شعبية معينة . المترجمة .

المدينة شائعة بأن معسكر الدراويش في الممر الواقع أسفل المدينة قد تمزق إربا بكل مدافعه ، وأن جيش الحكومة سوف يصل الليلة ، وكان أن اجتاح الرعب الناس ثانية ، وحتى البقية الباقية تقاطروا بدورهم خارجا ، ووقعوا ثانية في حيص بيص ، ثم قاموا بالتقاطر نحو المساجد التي لم يكونوا قد مروا بأبوابها لمدة ستة شهور ، وبدلا من الألعاب النارية والقفز على النيران^(١) ، ظلوا يتلون القرآن ، ودعاء " أمن يجيب المضطر " حتى الصباح ، وربما لهذا السبب لم ينتبه أحد قط إلى أنه حدث في نفس الليلة أن قامت جماعة تبلغ مائة شخص من الدراويش خفافا نشطين وكلهم من الفرسان بغارة ليلية على جيش الحكومة الذي كان قد عسكر في سفح الجبل الموجود جنوب المدينة ، وأحرقوا جزءا من خيام الجيش ومخيماته ، وغنموا مائتين وخمسين من جياد الجيش ، وعادوا . وصبيحة ذلك اليوم فحسب ، عندما قام الدراويش بعرض الجياد التي غنموها من جيش الحكومة طوافين بها في المدينة ، وهم يبينون للناس الوسم على أفخاذها ، هداً خوف الناس قليلا ، وانصرفوا إلى أعمالهم .

ولا جدال أنه لم يصل خبر عن جيش الحكومة في ذلك النهار ، لكن قبيل الغروب ، ارتفع الغبار والتراب ثانية من الطريق جنوب المدينة ، وشوهت طلّاع الجيش رأى العين ، وفي الليل عندما عسكر جيش الحكومة ، كانت نيران مواقده تبدو من على بعد فرسخ ، وكان أن حل

(١) من شعائر الاحتفال مساء أربعاء الإحتفال . المترجمة .

الربع ثمانية بالناس ، وانحشروا داخل المساجد ، وظلوا يستغيثون بالحضرة الإلهية حتى الصباح مرة ثانية .أما ما كان من أمر الطرف الآخر ، فلم يكن يمكنه بلا جدال القيام بغارة ليلية ، لكن الدراويش كانوا قد حسبوا حسابهم ، وقبل بزوغ الشمس بساعتين ، فُزِعَ سكان المدينة بأصوات مدفعية الدراويش التي تصم الأذان ، وهبوا ثانية إلى أعلى السطوح ، ورأوا أن جيش الحكومة قد بُوغت بشكل سيء ، وأنه في سبيله إلى التقهقر ، ناهيك عن أساس الموضوع كان على هذا النحو : إن الدراويش قاموا لخداع الجيش بإرسال أصغر مدافعهم وأقلها مدى إلى المعبر الموجود جنوب المدينة ، وكان الجيش قد ظن أن مدى كل المدافع التي صنعها الدراويش في هذه الحدود ، فتقدم بجرأة زائدة إلى مسافة ميدان أو ميدانين خلف أسوار المدينة ، وعسكر وهو في غفلة عن أن الدراويش عندما تحسنت أمورهم ، واستولوا على أهوان نحاسية عديدة ، جعلوا مواسير المدافع أكثر غلظة وطولا ، وكان من الممكن بمدافعهم الجديدة أن يطلقوا بسهولة على بعد ميدانين ، فكان أن كُسر جيش الحكومة مرة ثانية ، وانسحب ، وفي هذا الانسحاب ترك خلفه عربة مليئة بالمؤن ، سحبها الدراويش بمساعدة الأهالي إلى داخل المدينة ، ووزعوها بين الناس الذين كانوا يعانون القحط ، ومرة ثانية انمحي خوف الناس ورعبهم .

ولاجدال في أن الدراويش أنفسهم كانوا يعلمون أنه إذا كان من المقرر أن يستسلموا للحصار ، فإنهم في خلال شهر سوف ينهارون ، لكنهم كانوا آملين في أن يقوموا كل عدة ليال بحركة يضربون بها

الجيش ضربية ، ويضعون بها الجيش في كل مرة أبعد قليلا ، ويقومون بتحرير المزارع الأكثر اتساعا حول المدينة ، وكان أن قاموا في اليوم الثالث لحصار المدينة بتقسيم مدافعهم إلى قسمين ، فوضعوا قسما منها أمام البوابات والقسم الثاني على بعد ميدان من المدينة مصوبا إلى جيش الحكومة من أجل المصادمات التالية ، لكن جيش الحكومة الذي كان قد وعى الدرس من المرة الأخيرة تفرق حول المدينة ، وعسكر كل سلاح في ركن من الخلاء ، وأصبحت المسافة بين كل قسم من أقسام الجيش حتى المدينة أقل من فرسخ ، ومن هنا لم يعد للقصف فائدة ، وقبع كل طرف منتظرا . ومر أسبوع على هذا الحال ، وأثناء هذا لم ينتبه أحد إلى أن " العم نوروز " ^(١) قد جاء ومضى ، أما الأهالي الباقون في المدينة ، فبدلا من الإحتفال بالعيد وتحضير الخضرة وتنظيف المنازل ، فقد كانوا يجتمعون كل ليلة في المساجد لقراءة القرآن ودعاء " أمن يجيب المضطر " .

أما ما كان من أمر عملاء الحكومة السريين، فإنهم عندما رأوا جيش الحكومة لا يجرؤ على الهجوم ، وأن الدراويش متفوقون في الوقت الحاضر ، فقد وقعوا في حيص بيص ، لأنهم كانوا جميعا يعلمون إنه إذا طال الحصار ، ومل قبلة العالم ، فمن الممكن أن يأتي رئيس المنجمين مرة ثانية ويجلس لرؤية الطالع ، ويصرف الجيش عن الاستيلاء

(١) المقصود بالطبع عيد النوروز . والعم نوروز شخصية أشبه بشخصية بابا نويل في عيد الميلاد عند المسيحيين ، ولعل الشخصية الأخيرة منقولة منها . المترجمة .

على المدينة وتذهب كل جهودهم هدرا ، أو أنه إذا استولوا على المدينة بعد فترة من الصدام ، فمن الممكن أن يصدر قبلة العالم الأمر بمذبحة عامة لضيقه ونفاد صبره ، أو يتهوس لإقامة مئذنة من الجماجم ، أو إدارة السواقي بالماء ولا يرحم صغيرا أو كبيرا ، فكان أن عقدوا جلسة سرية ، ولم تستمر ليوم واحد أو ثلاثة أيام فحسب ، بل استمرت أسبوعا كاملا ، وقابلوا خانلرخان وميزان الشريعة في السر ، وتبادلوا الآراء عما يجب أن يفعلوا ولا يفعلوا ، وانتهوا بإرشاد من خانلرخان إلى أن يذهبوا بليل ، ويقوموا بفتح الطريق السرى للماء إلى القلعة ، وبأى شكل يسربوا ماء الخندق إلى مخزن البارود . والحسن في الأمر أن الوقت كان فصل الربيع ويسبب وفرة الماء ، كان المشرفون على توزيعه قد صرفوا ، كما كان الدراويش قد أبعادوا بطارياتهم المدفعية من خلف الخندق ، ولم يكن هناك أحد ينتبه للأمر . فكان أن حدث ذات ليلة أن انطلق مائة شخص من عملاء الحكومة السريين ومعهم الفؤوس والأرفاش وتسلاوا ببطء شديد إلى السد الأكبر لنهر المدينة والذي كان مفتوحا على القلعة ، وكان الدراويش قد أغلقوه في أول الحصار ، فلم تمض ساعتان حتى فتحوا السد ، وسرى الماء بطيئا وبلا صوت نحو الطريق السرى للماء إلى القلعة ، كما نقبوا جدارين من الأسوار ، وفتحوا طريقا للماء حتى تسرب والفجر يتنفس إلى مخزن البارود ، واتضحت المسألة عندما خرج نسوة الحرم حاسرات الرؤوس ، حافيات الأقدام يتقاطرن خارج حجراتهن صائحات : السيل، السيل جرى، وأى سيل ، أسود كالقار!!

وعندما بلغ الخبر مسامع تراب تركش دوز ، فهم أن الأمر قد خرج من يده ، فأصدر أمرا بمنع التردد على القلعة على الفور ، كما أغلقت بوابات المدينة ، ومنع طيران الحمام ، ثم أرسل في طلب خانلرخان ، فأتوا به مصفوعا على قفاه وأوشك الدراويش على سحقه بلكماتهم وركلاتهم ، وتذكر تراب تركش دوز تلك الليلة والموضوعات التي كان ميرزا عبد الزكي قد نقلها عنه ، فكان أن أمر الدراويش بأن يكفوا أيديهم عنه ، واختلئ به ، وبعد ساعة خرج وأمر بإحضار رؤساء الدراويش على الفور ، وجلس معهم للتشاور . كان هناك ثلاثون شخص من أعلام الدراويش حاضرين عندما أفتتحت جلسة المشاورة ، وفي البداية نقل كل واحد منهم ما لديه من أخبار إلى الآخرين ، ثم تحدث تراب تركش دوز قائلا :

- الليلة سوف يأخذ جيش الحكومة خبرا عن موضوع تسرب المياه إلى مخزن البارود ، أو على الأكثر غدا ، وأنذاك سوف نكون مكتوفي الأيدي ، وحتى نقوم ونعد البارود سيكون الوقت قد فات ، وقد رأيت أنه لم يتوصل إلى نتيجة من سفير أهل السنة ، وقد ذهب السيد " نور الدين " بنفسه وسلم سبعة مدن على الحدود ، وأخذ في مقابلها أربعمئة مدفع . - أي استأجرها - لمدة ستة شهور ، ولو كنا نستطيع أن نقاوم في هذه الفترة لحدث شيء ، وقد قضينا شتاء بهذه القسوة ، ومن أسف أن أحدا لم يكن يفكر في الحفاظ على مخزن البارود ، ومن ناحية أخرى فإن الجو إذا صار دافئا ، فسوف يتقاطر النمل كله خارج جحوره ، ومع

ما اشتهرنا به من مصادرة الأموال والأموال وتوزيعها ، فمن الغد سوف يمضي كل واحد من الخوانين " الإقطاعيين " والملتزمين ويأتي لمساعدة الحكومة ، في هذه الحالة تكمن الفائدة الوحيدة في بقائنا هي أن نكون ورقة صلح لكل العداوات والأحقاد القديمة بين الخوانين وقطاع الطرق ، لكن إذا أنقذنا أرواحنا ، فعلى الأقل سوف نحتفظ بنطفة أهل الحق سالمة . ومنذ ذلك اليوم الذي حكمنا فيه وحتى الآن ، لم نسفك الدم إلا ثلاثين مرة فضلا عن أن عشرة أشخاص من هذا العدد كانوا من بيننا نحن ، حقيقة أنه من أجل منع المذابح ينبغي الاستسلام أحيانا إلى أن نقتل أو نُقتل ، لكننا الآن فعلا لسنا في وضع يحتاج إلى مثل هذا الانتحار الجماعي ، ويقاؤنا يعنى الانتحار الجماعي ، ومن ثم ينبغي أن نمضي ونترك المدينة .

قال مولانا الذي تعرفنا عليه سلفا : إلى أين ؟

قال السيد : هذه مسألة تالية ، ينبغي أن نناقش أولا : أيكون الصلاح في الذهاب أم لا ؟ وفي رأيي أن الصلاح في الذهاب .
وعندما وافق كل الحاضرين على هذا الحل ، واصل تراب تركش دوز قائلا :

- عندما يئسنا من سفير أهل السنة ، تعلمون أنني أرسلت السيد إلى بلاط الهند كي يقوم هناك بالدعاية للسلام الشامل ، وقد عاد السيد من الهند منذ أسبوع ، وأحضر معه خطاب دعوة ، وأظن أنه قد استراح بالناس من ناحية ما يحدث في الطريق من مضايقات ، فالصلاح

في أن نقبل هذه الدعوة ، لكن بشأن كيفية قطع طريق بهذا الطول
سالمين ، فقد جاء خانلرخان ، واقترح عقد صفقة ، يقول : في حالة
أخذنا لنساء الحرم معنا ، فعلاوة على أن أحدا لن يتعرض لنا ، فإنه
سوف يمنح كل واحدة من النسوة خمسمائة قطعة ذهبية ، كما أن عقود
طلاقهن جاهزة ، وأنتم تعلمون لا جدال عددهن ، وأنهن في مجموعهن
يصلن إلى نيف و ثلاثمائة امرأة ، وأنا أظن أن هذا الحريم على الأقل
هدية مناسبة لبلاط الهند .

قاطع مولانا كلام تراب وقال مزمجرا :

– إن لم أكن مخطئا ، فإن ثورتنا أخذة قليلا قليلا في أن تُختم
بالقوادة ،

فضحكت جماعة ، واستغرقت جماعة في التفكير ، وواصل تراب
تركش بوز مبتسما:

– أتريد أن نعقد عليهن جميعا يا مولانا ؟ على كل حال لقد جهزوا
من المناطق الدافئة حريما جديدا للبلاط أكثر شهوانية ، والآن صار
الحريم القديم باعث قرف ، ومصلحتنا في أن نختار ونأخذ معنا أكثرهن
شبابا وجمالا ، فليهن التحمل لمثل هذا السفر البعيد والطويل من ناحية ،
ومن ناحية أخرى يكن شيئا يصلح للهنود . ولقد قلت لخانلرخان أن
هذه الصفقة من الممكن أن تتم بشرط أن يأتي هو نفسه معنا حتى
الحدود كرهينة ، والآن حتى تقولوا رأيكم ، سوف يقرأ السيد نص دعوة
بلاط الهند .

وقرأ السيد نص الدعوة ، وتشاوروا بعدها لمدة ساعة : أى طريق يسلكون ، وماذا يأخذون معهم من أشياء ، وأية ضمانات يأخذوها ، ثم قرروا أن يتحركوا عندما يحن الليل ، وقاموا بتقسيم العمل .

كلف جماعة من الدراويش أن تقوم طوال النهار بمناوشة جيش الحكومة بالكر والفر ، حتى يكون نومه ليلاً أثقل من المعتاد ، وعندما يحل الليل عليهم أن يشعلوا المناقد إلى جوار المدافع أكثر ضراماً من كل ليلة ، وأن يصلوا في الوقت المضروب ، وكلفت جماعة بإغلاق مخازن المؤن بعد وضع كل ما لديهم من بارود ومؤن في الأخراج والهميسان ، كما كلفت جماعة بتوسيع فتحات حشو المدافع ، وكلفت جماعة بجمع كل جواد وبغل يعرفون أنه موجود في المدينة . وعندما قسمت الأعمال تقرر أن يكونوا جاهزين عندما تمر ثلاث ساعات من الليل عند البوابة الشرقية للمدينة .

يا أحبباء القلب .. كان حسن آقا أحد الحاضرين في جلسة المشاورة . وبعد انتهاء الجلسة كان أول ما فعل أن ذهب وقابل - وهو لا يزال داخل القلعة - ميرزا عبد الزكي ، وأخبره بكل الأمور ، وقال له أن يجمع أمره وأن يحضر في الموعد تماماً ، كما طلب منه أن يمضي ويخبر ميرزا أسد الله بما تم . فكان أن وصل ميرزا عبد الزكي مسرعاً إلى تكية السروجية ، ولم يكن في ممرها وفنائها دراويش يتسكعون والبنادق على ظهورهم ، كما لم يكن هناك خبر عن زملاء ميرزا أسد الله . كان ميرزا أسد الله نفسه وحيداً منفرداً قد

جلس خلف فرشه وهو مشغول بتبويض ديوان شعر ، كان واضحاً أن رائحة نهاية الأوضاع قد فاحت ، وتبادلا التحية ، ثم قص عليه ميرزا عبد الزكي خلاصة الأحداث ونتيجة مباحثات الدراويش ، وقال في النهاية :

- على كل حال يا عزيزي ، أهل الحق سوف يذهبون الليلة ، ثم يا عزيزي من جديد نفس ذلك الحساء ونفس ذلك الطبق !!
قال ميرزا أسد الله : لا بد أنك سوف تذهب معهم .

قال ميرزا عبد الزكي : بالطبع يا عزيزي ، أنا لم أجد رuchi في الطريق ، ثم إننا لسنا في عصر ليلي والمجنون حتى أفقد كرامتي وحياتي من أجل امرأة ، تحدثت في كل الأمور مع درخشنده ، والحمد لله ليست هي في حاجة إلى . وأنت أيضاً يا عزيزي ، ينبغي أن تمضي .

قال ميرزا أسد الله : لماذا ؟ قرى ماذا حدث ؟ كان هناك مريض بالحمى ، وعرق .

قال ميرزا عبد الزكي : أتظن يا عزيزي أنك سوف تواجه ملائكة ، أول من سيسعى في أثرك هو معاون القسس . عزيزي : هل نسيت أي بلاء صبيبناه على رأسه بينما كنا في القرية ؟ أنا وأنت يا عزيزي ذهبنا وعشنا تحت جناحهم أي صرنا شركاء في الجريمة ، تراك لا تعلم أن أساس هذه الحكومة قائم على الحقد ؟

قال ميرزا أسد الله : أعلم يا جناب السيد ، لكني لم أرتكب
جرما .

قال ميرزا عبد الزكي : لست أفهم يا عزيزي ، إذا جاء الجيش ،
فأنت أول من يُقبض عليه ، مع سوابقك إياها ، ومع أعمال ديوان
القضاء ، هه أتظن يا عزيزي أنهم سوف يأتون ويضعون تاج الفخار
على رأسك ؟

قال ميرزا أسد الله : حسنا ؟! وبعد ؟

قال ميرزا عبد الزكي : ليس فيها بعد يا عزيزي . تريد أن تضحي
بنفسك ؟ تريد أن تصبح شهيدا ؟ حقيقة أن عبادة الشهادة التي تعتنقها
يا عزيزي ، قد تطورت إلى تظاهر بالشهادة .

قال ميرزا أسد الله : ألا قليفض فمي .. لكني الآن أفهم لماذا
يستسلم أحد للشهادة ، لأنه يقوم بلعبة ، ولا يستطيع أن يفر ، فيكون
أن يبقى حتى يتحمل عواقب الخسارة ، عندما يهرب إنسان من شيء
ما أو من مكان ما ، فإن هذا يعني أنه لم يعد يتحمل بعد وضع ذلك
الشيء أو ذلك المكان ، وأنا أريد أن يكون لدى شيء ، وبالنسبة لي
هذه هي بداية الإمتحان !!

قال ميرزا عبد الزكي : ها أنت ترى أنك تقوم بتقليد الشهداء يا
عزيزي .. ألا يكفي في النهاية كل هذا العزاء الذي قمنا به في موت
الشهداء ؟! نترك إمكانيات العمل للآخرين ، ونقنع نحن أنفسنا

بالتظاهر بالشهادة . عزيزى : في هذا يكمن السبب في أن أعمالنا كلها دائما عرجاء .. هل نسيت أنك كنت تقول ينبغي أن يكون لدينا خطة مسبقة ؟ حسنا يا عزيزى : هذا الفرار هو أيضا خطة ، إنه استعداد للمرحلة القادمة ، نوع من المقاومة يا عزيزى .

قال ميرزا أسد الله : لا ، الفرار ليس مقاومة ، هو إخلاء للميدان ، ومن يفر يسلب من نفسه الحيثية ، حتى في لعبة من الألعاب ، إما أن يكسب أو يخسر ، وليست هناك نتيجة ثالثة ، ليست صفقة سوق حتى يتوسط فيها سمسار ، هي صفقة الحق والباطل !

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، ها أنت لاتفتأ تتحدث بحديث الشهداء بشكل سيء .. أصدقت ؟

قال ميرزا أسد الله : إذن كنت تظن أننا غارقون في لعبة ؟ هل تذكر كم كنت أنت عنجولا وكم كنت أنا أتريث ؟ ثم : إلى أين تريدون الفرار ؟ ماذا تظن يا ترى لون سماء الهند ؟ إن هذا الصوت الذى يصل من بعيد هو صوت الطبول !!

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، قلت أننا ذاهبون لكي نجهز أنفسنا للمقاومة التالية .

قال ميرزا أسد الله : ولا هذا أيضا ، لقد انتهى أمركم تماما ، كانت بالنسبة لكم مغامرة وانتهت ، لكنها بالنسبة لي بدأت لتوها ، وعندى أن أعظم أنواع المقاومة في مواجهة الظلم تأثيرا هي الشهادة ،

بالرغم من أنني لا أملك الجدارة بها ، فما دامت الحكومة ظالمة ، ولا يتأتى من أيدينا عمل ، فإنه يمكن الاحتفاظ بالحق حيا في ذاكرة الشهداء فحسب .

قال ميرزا عبد الزكي : ها أنت ترى يا عزيزي ، لقد اعترفت في النهاية ، والخلاصة أن كل ذكريات الحق هذه والتي دفنت مع أجساد كل هؤلاء الشهداء .. متى ساعدت في القضاء على الظلم يا عزيزي بحيث تريد الآن تقليد الشهداء ؟

قال ميرزا أسد الله : بمجرد أن تحركنا أنا وأنت آملين ، كان الشهداء أمام عيوننا ، كنا نريد أن نحفظ تراثهم ، أتعلم يا جناب السيد حقيقة أن الشهادة لا تكف يد الظلم عن أرواح الناس وأموالهم ، لكنها تسلب سيطرة الظلم على أرواح الناس ، فتسيطر عليها ذكرى الشهداء ، وهذا هو نفسه حمل الأمانة ، يستسلم الناس لسلطة الظلم ، لكنهم لا يسلمون أرواحهم .. هذا هو تراث الإنسانية ، وما تتوارثه الأجيال خارج كتب التاريخ المتعفنة ، هذا هو فحسب .

قال ميرزا عبد الزكي : في النهاية يا عزيزي ، إذا كانت مقاومة الظلم في حد ذاتها هدفا فحسب ، فهناك كلام ، لكن المقاومة يا عزيزي ليست هدفا ، القضاء على الظلم هو الهدف .

قال ميرزا أسد الله : وأنت ترى أنه لم يحدث ، برغم أننا أيضا كنا نملك المدافع.

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، لدى ألف عمل ، الخلاصة ، هل ستذهب أم لا ؟

قال ميرزا أسد الله : لا .. سأذهب من الغد إلى باب المسجد الجامع فحسب

قال ميرزا عبد الزكي : إذن يا عزيزى فقد قررت أن تضحي بنفسك من أجل اللاشيء والهباء ؟ هـه ؟

قال ميرزا أسد الله : لا ، بل أريد أن أعوض حياتي .

قال ميرزا عبد الزكي : أنت يا عزيزى ببقائك تضيع حياتك .

قال ميرزا أسد الله : لا .. أريد أن أمتحن نفسي مرة أخرى ، سوف أبقي ، وأعطي لحياتي معنى .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، معنى حياتك طفلاك .

قال ميرزا أسد الله : لا ، لو استطعت أن أقدم شيئاً في مقابل كل هذه النعم التي مُنحتها دون استحقاق فقد أعطيت لحياتي معنى ، الأطفال هم التواصل الطبيعي للحياة لا المعنى الإنساني لها ، البذرة التي سقطت من شجرة لا بد وأن تخضر ، لكنى لست شجرة ، ولم أعش كما يعيش النبات ، وبدلاً منى كان أى شخص آخر يستطيع أن يكون أباً لهذين الطفلين أو لأى طفل آخر ، لكن لا أحد قط يستطيع أو استطاع أن يصبح بديلاً عنى ميرزا أسد الله كاتب العرائض على باب المسجد ، هذا هو الحمل الذى كان على كتفى فحسب

لا أستطيع أن أتركه وسط الميدان وأفر ، بل ينبغي أن أبلغ به المستقر .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزي ، لقد قضيت عمرا أنظر إلى يدك ،
قضيت عمرا أتحسر غيرة منك ، لكن في هذه الخطوة الأخيرة لا
أستطيع أن أتبعك ، إنك تعاند بشكل سيء يا عزيزي .

قال ميرزا أسد الله : في المقابل ستستريح يا جناب السيد ، سوف
تبقى وحدك مع نفسك ، قالوها في النهاية : أنا أنا وأنت أنت ، وسوف
تقربا لا أيضا من ناحية زوجتك ، أوصها فحسب ألا تترك عمل
نسج السجاد ، عل زرين تاج بدورها تستطيع أن تربي الطفلين في ظل
السجاد ، ثم مر على مشهدي رمضان وحسن عازف الكمان ، وادعهما ،
علهما يأتيان معك .

وعند هذا الحد انتهى كلامهما ، وإلى أن وصل ميرزا عبد الزكي
إلى البيت ظل يبكي ، وطوال ذلك اليوم بينما كان أهل المدينة منهمكين
في المشاجرات على الخبز والمؤن والوشم الذي على أيديهم ، عقد
ال دراويش في الخفاء أحمالهم ، وحملوا البارود المتبقي ، وعطلوا المدافع
وأعدوا البغال والخيول ، واختاروا أفضل البنادق وحطموا ما تبقى منها
أو أحرقوه . وعندما خفت الأقدام في المدينة ، ركب خانلرخان بعزة
واحترام جوادا ومعه مائة وعشرون امرأة من الشابات وضعهن في
ال هوادج ، وهربوا من البوابة الشرقية للمدينة بدون ضجة أو صخب ،
لكن نيران المناقد التي كانت تشتعل أسفل المدافع المعطلة ، ظلت مشتعلة
إلى منتصف الليل .

في صبيحة اليوم التالي خرج أهل المدينة بقيادة ميزان الشريعة والعملاء السريين في المدينة ، عراة الرؤوس حفاة الأقدام ، يضعون المصاحف على رؤوسهم ، والخبز والملح في الصواني ، خرجوا من بوابات المدينة وذهبوا لاستقبال جيش الحكومة . كان قبلة العالم لا يزال نائما ، واستيقظ من النوم على ضجيج الأهالي ، واستقبل ميزان الشريعة ومعه سبعة من التجار الذين كان قد أفرج عنهم من السجن صبيحة نفس ذلك اليوم ، وهنا ميزان الشريعة ودعا وأبدى تعاطفه على خانلرخان . وركب قبلة العالم نون أن يفطر ويدخل المدينة في أبهة وعظمة . حقيقة أن الدراويش كانوا كلهم قد فروا ، لكن تعال وانظر ماذا جرى : حركة الاعتقال على قدم وساق ، ونهب مائة بيت من بيوت المدينة ، ومعظمها بيوت أولئك الذين كانوا قد هربوا عند محاصرة المدينة ، وذبح سبعة أشخاص بلا سبب ولا أساس يزعم أنهم من زعماء الدراويش أمام موكب قبلة العالم ، وقبض على ألف شخص وأخذوا إلى السجن ، وفي اليوم التالي شنق سبعة من المساجين أمام بوابة القلعة ، ووضع الشمع المشتعل في جراح سبعين منهم أو حشوا بهم جلود البقر وخاطوا عليهم أو صبوا الزجاج المذاب في عيونهم أو وضعوا في قزانات ماء مغلى ، كما تقرر نفي سبعمئة شخص ، ومن استطاع ممن تبقوا أن يدفع الفدية أطلق سراحه ، وكل من لم يستطع أن يرشو أحدا ظل قابعا في غياهب السجن .

يا أحبباء القلب .. ذهب مع الدراويش من أبطال قصتنا ميرزا عبد الزكي وحسن آقا واخوته ، أما مشهدي رمضان العلاف الذي كان

قد شبع من الحياة ، ولم يكن مستعدا للذهاب مع الدراويش فقد قبض عليه ، وفي اليوم التالي وضع الشمع المشتعل في جراح في جسده ، أما حسين عازف الكمان الذى ظل طوال عمره يعد مجالس اللهو وساحات القتال فقد بقي ، وقبض عليه ، فقطعوا يده الباقية بالطول ، ثم شنقوه منكسا . لكن خان دايبى استطاع أن يخرج عن كل أملاكه في يوم واحد ، حتى استطاع بمساعدة كبراء المدينة ورشوة ميزان الشريعة ومأمور المخفر والعسس والمعاون أن يسجل إسم ميرزا أسد الله في قائمة المنفيين . ولأحدثكم أيضا عن درخشنده هانم التي لم تذهب قط إلى حريم خانلرخان ، كما خلصت منزل الحاج ممرضا من النهب على أساس أنه مشغل سجاد ، وقد تطور عملها بحيث أن السجاد من نسيج يدها ذهب حتى بطرسبرج والصين ومنشوريا . أما زرين تاج هانم وطفلاها فقد نقلوا أثاث بيتهم وذهبوا إلى منزل خان دايبى . وكانت الجثث لا تزال فوق أعواد المشانق ، وأزهار الشقائق التي أطلت برؤوسها داخل حقل البرسيم الموجود تحت أشجار التوت المقطوعة في أطراف المدينة تتماوج ، أن حدث ذات يوم أن خرج خان دايبى مع حميد ، ومشيا يحملان سترة ميرزا أسد الله الجلدية وحذاءه ذا الساق وعصاه المقوسة ذات العقد حتى باب السجن ، فلبسها ميرزا أسد الله ، وانطلق إلى الصحراء .

(٩)

بقية قليلة

....لنعد الآن إلى قصة السيد راعينا الذي صار وزيرا بتلك الطريقة ، ومات بتلك الطريقة .

يا أعسزاء القلب .. رأيتم أن أولاده قد عادوا إلى المدينة ، ولما لم يكن يتأتى من أيديهم أى عمل ، اشتركوا معا وأصبحوا من أصحاب المكاتب ، لكن لما كان الشريك - وإن كان طيبا - ليأخذه الله عنده ، فإن الأخوين لم يتفاهما معا ، خاصة وأن إدارة كتاب في ذلك العصر والأوان لم يكن عملاً ذا قيمة ، وبشق الأنفس كان يمكن عن طريقه تدبير عيش أسرتهين ، فكان أن باع أحد الأخوين نصيبه إلى أحد الغرباء ، وذهب إلى أقرانه في اللعب أو معارفه الذين كان قد تعرف عليهم إبان حياة أبيه في البلاط ، وأنفق كل ما كان قد حصل عليه من بيع نصيبه في الكتاب ، ورشاً هذا وذاك حتى صار في النهاية من كتاب الديوان ، ويعد الترقى في المراحل والدرجات وصل في النهاية إلى

منصب ملك شعراء البلاط ، . لكن ذلك الأخ الذى كان أكثر تحملا قد واصل شغله في الكتاب وواصله وواصله حتى اشترى نصيب ذلك الرجل الغريب أيضا ، وصار صاحب كتاب شهير في المدينة . وشاء القضاء أن رواة الأخبار هكذا رووا أن قصتنا هذه قد كتبها ميرزا عبد الزكي الذى ذهب فى رفقة الدراويش إلى بلاط الهند حيث كان المجوسي واليهودى والمسلم والنصراني يعيشون معا حول سفرة واحدة ، وبينما كانت تلك المذابح تجرى بين الشيعة والسنة ، كانوا هم يدعون السلام الشامل . وقالت جماعة أخرى من نفس رواة الأخبار ، بل كتبها ميرزا أسد الله نفسه بعد عشرين سنة من السير والسياسة كدرويش سياح ، واحتجوا على هذا بأنه قد ورد في آخر إحدى نسخ القصة غير الأصيلة : " أيها الإبن الحبيب ، إذا كنت تتذكر ، فقد كنا ذات يوم نتحدث عن الإرث والميراث ، وقلت لك أمور لا أظن أنك قد فهمتها ، على كل حال : هذه القصة ميراث منى لك ، واعلم أيضا أن أبى كان قد ترك لي ميراثا ، لكن من أسف أنني لم أستطع تركه لك ، كما أنه لن ينفعك ، أتذكر تلك السترة الجلدية والحذاء ذا الساق والعصا التى كانت أمكم قد ضاقت منها تماما ؟ أجل يا حبيب أبى ، تلك الأشياء كانت ميراثا من أبى لي ، وهي الآن تنفعني . "

لكن بالنسبة لنا ، ولسنا من رواة الأخبار ، ولا من ناقلي
الأخبار ، ما الفرق بالنسبة لنا في من كتب القصة ؟ وهكذا نمن
على قصتنا بمسك الختام ، حتى نشفق قليلا على حال ذلك الغراب ،
الذي لم يصل إلى عشه حتى الآن .

تمت

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل

جلال آل أحمد نون والقلم

نون والقلم رواية تقوم على حادثة جرت في عهد أحد ملوك إيران لم يحدده الكاتب، وعلى ثورة مذهبية من التوراث التي يحفل بها تاريخ إيران القديم والمعاصر على السواء .. إلا أن استقراء وقائع الرواية وأحداثها مع عودة إلى تاريخ إيران، يثبت وقائع مشابهة في عهد الشاه عباس الصفوي الأول أو الكبير الذي حكم إيران في الفترة ما بين 1587 - 1636م، وبالرغم مما يروى عن هذا الملك من أمجاد، وأنه كان أعظم ملوك الدولة الصفوية، إلا أن جلال آل أحمد يرى أن نكبة إيران الحقيقية تنبع من مزج الدين بالسياسة وغلبة المذهب الشيعي منذ العصر الصفوي. والخافية المذهبية للرواية تتحدث عن مذهب النقطوية الذي ظهر في عهد الشاه عباس، وذلك بالطبع دون ذكره على وجه التحديد ..

ويعتبر جلال آل أحمد "نون القلم" نفسه، لكنها ليست أولاً وأخيراً في لغتها وفي مادتها ومحتواها من الجماهير أحلامهم بالسنتهم، ومن ثم لجأ إلى شخصية الراوي في يكن هناك بد من وجود راوٍ يعبر عن الجماهير وتختفي عن الكاتب تماماً..